شخصيات من التاريخ

# طارق بن زياد

## فاتح الاندلس



حسين شعيب




دار الفكر العربي

مؤسسة ثقافية للطباعة والنشر والتوزيع


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

# طارق بن زياد

## فاتح الأندلس

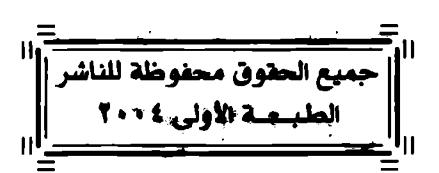
# طارق بن زياد

## فاتح الأندلس

حسين شعيب



دار الفكر العربي
بيروت - لبنان



الطبعة الأولى ٢٠٠٤



دار الفكر العربي
مؤسسة ثقافية للطباعة والنشر والتوزيع
كورنيش سليم سلام - بناية الشروق - الطابق الأول
هاتف: ٠١/٣١١١١٤ - ٠١/٣١١١١٥ - فاكس: ٠١/٣١٣٧٣٦
ص.ب: ١٤/٥٠٧٠ - بيروت - لبنان
Email: fikrarab@cyberia.net.lb

# توطئة

مما لا شكّ فيه أنّ المغرب الأقصى هو امتداد للمغرب العربي الذي يضم المغرب وتونس والجزائر وليبيا وموريتانيا، ومن هذا المنطلق، فإننا عندما نطلق اسم «المغرب الإسلامي» فإننا نعني مجموع الدول الخمسة. هذه الدول التي حرص أجدادنا من الصحابة والتابعين على نشر الإسلام في ربوعها، وتحصينه وتثبيت ركائزه ودعائمه.

إلا أن هذه المهمة لم تكن بالعمل اليسير أو السريع، إنّما كلّف أجدادنا جهداً وتركيزاً عميقين، بالإضافة إلى التضحيات الجمّة التي لا يمكن تعدادها. ويرجع ذلك لعدة عوامل أهمها:

- دمج سكان القبائل في بوتقة إسلامية واحدة - ضمن نطاق الجيش - خاصة قبائل البربر، الذين اعتادوا حياة الفوضى والتمرّد والعصيان.

- وعرة أراضي الشمال الإفريقي بما يكتنفها من جبال وأنهار وغابات.

- صعوبة إرسال الدعم للجيوش المقاتلة. وذلك لصعوبة وصول الجيوش بكافة مؤنها ومعداتها من مركز الخلافة إلى شمال إفريقيا.

لهذه الأسباب وغيرها، كانت مهمة الصحابة والتابعين صعبة إلى حدٍّ ما، ولكن العزيمة صلبة لا تقهر والجهاد في سبيل اللّه مطلب كلّ مسلم ومسلمة.

**عقبة بن نافع**، قائد حملة الفتح الأولى، كان فتح مصر على يد القائد العربي عمرو بن العاص سنة ٢٠ للهجرة، حيث استقر فيها والياً في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب.

وقد زاره وفدٌ من مدينة «برقة»[1] حيث عرض عليه الدخول في الإسلام بهدف اعتناق الديانة الإسلامية من جهة والتخلص من استبداد الرومان والبيزنطيين.

رحّب عمرو بن العاص بالعرض المقدّم من أهل «برقة»، وحمل طلبهم إلى عمرو بن الخطاب الذي وافق على الطلب. فانتدب عمرو بن العاص ابن خالته «عقبة بن نافع» لقيادة جيش مجهّز لغزو «برقة» وتحريرها، وأثبت «عقبة» جدارته وكفاءته لقيادة هذا الجيش الذي استطاع بعد معركة قاسية انتهت لصالحه أن يدخل «برقة» فاتحاً عام ٢١ للهجرة، محرّراً بذلك كافة المناطق الساحلية والواحات الداخلية.

**عبد اللّه بن سعد بن أبي سرح**، هو قائد الحملة الثانية للفتح الإسلامي، وذلك أنه بعد عام من تحرير «برقة» انتقل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب إلى الرفيق الأعلى، وخلفه الخليفة الثالث عثمان بن عفّان، الذي عيّن قائداً جديداً للجيش هو عبد اللّه بن أبي سرح، حيث كان عليه مواجهة البيزنطيين الذي حشدوا قوّاتهم انتقاماً، وكانت قواتهم تقدّر بأكثر من مئة ألف جندي مجهّز بالسلاح. إلا أن إصرار المسلمين وتنظيمهم استطاع أن يحمل المسلمين إلى النصر الساحق في معركة «سبيطلة». وقد مكّن هذا النصر من رفع معنويات المسلمين، كما أنّه ساهم مساهمة فعّالة في دخول الكثير من سكان إفريقيا في الإسلام طوعاً واختياراً.

أما قائد الحملة الثالثة فهو **معاوية بن حديج**، بعد مقتل عثمان بن عفان رضي اللّه عنه، والنزاع الذي حصل بين الخليفة الرابع علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، استتبّت الأمور لمعاوية بن أبي سفيان الذي أرسل الجيوش لتحرير شمال إفريقيا، وانبرى لهذه المهمة القائد «معاوية بن حديج» وذلك عام ٤٦ للهجرة، وقد وفّق في مهمته حيث استطاع محاصرة «سوسة» (تونس) وجلولاء، واستطاع تحقيق إنجازات مهمة، وبعد ذلك قفل عائداً إلى مصر دون أن يعين بعده والياً للبلاد، الأمر الذي عرّض البلاد للفوضى والاضطراب.

(١) برقة: مدينة واسعة في ليبيا.

عقبة بن نافع يقود الحملة الرابعة، وذلك بعد أربع سنوات من تولّي معاوية بن حديج القيادة. ففي عام ٥٠ للهجرة عاد «عقبة بن نافع» إلى قيادة الجيش الإسلامي، الذي أعاد تنظيم الجيش وتجهيزه. ثم زحف نحو تونس ودخلها فاتحاً على رأس جيش قوامه أكثر من عشرة آلاف مقاتل وبنى مدينة القيروان عام ٥٥ للهجرة.

دينار أبو المهاجر، يقود الحملة الخامسة، ففي سنة ٥٥ للهجرة عزل معاوية بن أبي سفيان عقبة بن نافع وعيّن مكانه «دينار أبو المهاجر» الذي جهّز حملة عسكرية واسعة قادها بنفسه متوجّهاً إلى «جبال الأوراس» معاقل المغاربة الأشدّاء.

كان أمير المغاربة وقتئذٍ يدعى «كسيلة» وكانت له رئاسة أوروبة، حيث كان يتمتّع بنفوذ واسع. إلا أن القائد دينار أبو المهاجر، استطاع الانتصار عليه حيث فر «كسيلة» والقائد دينار في أثره إلى أن تظاهر «كسيلة» بالإسلام، فصدّقه أبو المهاجر واستبقاه إلى جانبه يستعين بمعلوماته على أحوال البلاد وسكانها.

وهكذا انتهت مهمة «أبو المهاجر» لأن الفتح الإسلامي كان قد بلغ في عهد معاوية المغرب الأوسط (الجزائر). أما المغرب الأقصى (المغرب) فإن تحريره لم يبدأ إلا في عهد يزيد بن معاوية.

عقبة بن نافع، يقود الحملة السادسة، ففي عام ٦١ للهجرة أعاد يزيد بن معاوية عقبة بن نافع إلى مركز القيادة، حيث أمره بإعادة تجهيز الجيش وبالفعل فقد أعاد عقبة تجهيز الجيش وزحف به نحو المغرب، وأثناء طريقه علم بأن البيزنطيين قد عقدوا حلفاً جديداً مع البربر لاعتراض الزحف الإسلامي، إلّا أن عقبة قرر متابعة زحفه على رأس الجيش، إلى أن تقابل مع جماعات البيزنطيين والبربر حيث انتهت جميع المعارك لمصلحة الجيش الإسلامي الذي أثار إعجاب البربر به، وأقبلوا يعتنقون الدين الجديد بكثافة، وهكذا استمر عقبة في زحفه تتوالى عليه الفتوحات حتى وصل إلى «سبتة» ثم «طنجة» ماراً بما بينهما، ثم اندفع نحو الغرب مخترقاً قبائل «طنهاجة» ليجد نفسه مواجهاً للمحيط الأطلنطي.

وأثناء عودة عقبة بن نافع نصب له كسيلة البربري حيث اشتبكا في معركة فجائية قرب وادي الأبيوض ـ وكان كسيلة قد أوهم المسلمين بأنه وقبيلته قد أسلموا كما ذكرنا، إلا أنه كان منافقاً ويكنّ حقداً عظيماً على المسلمين عامة وعلى عقبة بن نافع لأنه لم يحسن معاملته ـ وفي هذه المعركة استشهد عقبة بن نافع ـ ٦٥ للهجرة ـ وكان لاستشهاده أثر كبير على الجيش الذي أصيب بنكسة قوية.

**زهير بن قيس البلوي**، يقود الحملة السابعة ويقضي على كسيلة، عام ٦٧ للهجرة فيما كان المجاهدون يحتشدون في برقة (ليبيا)، كان عبد الملك بن مروان مشغول البال بالحرب الدائرة بين الحجاج بن يوسف الثقفي وعبد اللّه بن الزبير. ورأى عبد الملك أن لا يتهاون، وقرّر أن يثأر لعقبة بن نافع، حيث انتدب زهير بن قيس البلوي قائداً للحملة الجديدة على المغرب، فخاض معركة فاصلة انتهت بمصرع كسيلة سنة ٦٧ للهجرة، وانهزام الأسطول البيزنطي وإجلائهم عن السواحل الإسلامية.

**حسان بن النعمان**، يقود الحملة الثامنة، بعدما استتب الأمر لعبد الملك بن مروان واستطاع إخماد الفتن، اختار حسان بن النعمان الغساني لقيادة الجيش تكملة للفتح بالمغرب ـ إذ بلغ عدد الجيش وقتئذٍ أكثر من أربعين ألف جندي ـ فانقض على جبال الأوراس[1]، ثم استسلمت بعد ذلك قبائل المغرب للجيش الإسلامي، وقد نجح حسان بن النعمان في مهمته حيث اتّبع سياسة اللين مع الحزم بعد الحرب. كما قام بتأسيس ترسانة لصناعة السفن سمّيت بدار الصناعة، كما عمل على نشر العقيدة الإسلامية وبناء المساجد والمعالم الإسلامية، وقد ظل والياً على البلاد التي افتتحها إلى أن أُعفي من منصبه عام ٨٥ للهجرة.

وبعد ذلك لم يجد موسى بن نصير صعوبةً في إخضاع البربر وذلك أن الحملات السابقة قد مهدت له الطريق وفوق ذلك فقد استطاع موسى بن نصير من استمالة «يليان الغماري» وولّى على طنجة طارق بن زياد. واستطاع

---

(١) عام ٧٢ للهجرة ـ ٦٩٥ ميلادي.

موسى بن نصير أن يبلغ بجيوشه إلى ناحية درعة جنوب المغرب، بعدها فكّر في فتح الأندلس بإيعاز من الكونت «يليان» الذي كانت له عداوة شخصية بينه وبين أمير الأندلس «الذريق» وقد تمكن موسى بن نصير من الزحف نحو الأندلس سنة ٩٢ للهجرة بقيادة القائد طارق بن زياد.

# طارق بن زياد
## فاتح الأندلس

### نبذة تاريخية

هو طارق بن زياد البربري، ينتمي إلى قبيلة «الصدف»، وكانت مضارب خيام هذه القبيلة في جبال المغرب العالية، وهي قبيلة شديدة البطش، كثيرة الغزو، يمتاز أفرادها بميلهم الفطري إلى التمرد وعدم الانقياد، أما ديانتها فكانت الديانة الوثنية، وإلى هذه القبيلة بمفاهيمها وتقاليدها ينتمي البطل الفاتح طارق بن زياد.

اختلف المؤرخون في نسبه وشهرته، فذكر بعضهم أنه بربري الأصل ينتمي إلى «نغزاوة» من بربر إفريقيا وهي البلاد التي يطلق عليها اسم «تونس» الآن، وفي رواية أخرى أنه بربري ينتمي إلى قبيلة «زناتة»، ويرى البعض أنه من موالي الفرس في مدينة «همذان». ولكن ممّا لا شك فيه ـ ولم يختلف عليه معظم المؤرخون ـ أنه كان مولى «لموسى بن نصير» وأن موسى كان يثق به كثيراً ويأتمنه ويقربه إلى أن أمّره على بعض الجيوش، وجعله في مقدمة جيشه الذي قاتل به البربر وفتح بلادهم.

«ثم عيّنه والياً على مدينة «طنجة»، وبعدها استدعاه وأوكل إليه فتح إسبانيا لكونه توسّم فيه صدق العزيمة، والشجاعة، والإقدام، إلى ما امتاز به من فصاحة اللسان، وقوة البيان، والتأثير في سامعيه واستماتته في الجهاد وإعلاء كلمة اللّه. وبما أنه يرجّح أن يكون من البربر ـ بربر إفريقيا ـ فقد كان معظم جنده من البربر لأنه يستطيع أن يؤثر عليهم ويأخذ بأيديهم إلى النصر»[١]

---

(١) رجال نفتقدهم، الشيخ محمد منويد ـ المركز الإسلامي للإعلام والإنماء.

ولم يصل المسلمون إلى شمال إفريقيا إلا في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك، الذي وكّل موسى بن نصير بهذه المهمة.

وبفعل الحملات المتواصلة وانتشار الإسلام، فقد شرعت القبائل الوثنية في الدخول في الإسلام، وبالطبع، فقد دخلت قبيلة الشاب طارق بن زياد في الإسلام، وقد أعجب موسى بن نصير بقوّة هذا الشاب وشجاعته وثقته بنفسه، ولهذا عهد إليه بفتح شمال إفريقيا.

وقد حارب طارق بن زياد المشركين في كثير من المواقع، وعلى يده دخل الكثيرون في الدين الإسلامي، وبفعل هذا النجاح الباهر ـ يضاف إليه الإعجاب الشخصي بطارق وشجاعته ـ فقد عيّنه موسى بن نصير والياً على طنجة كما ذكرنا.

كان الحلم الأكبر الذي يراود طارق بن زياد هو اجتياز الماء إلى الجهة الأخرى واجتياح إسبانيا، التي كانت تحت حكم ملك القوط «الذريق».

وكان حاكم «سحبة» يناصب «الذريق» العداء، ولهذا قام باتصالات متكررة بطارق بن زياد وموسى بن نصير وبدأ يحثهما على غزو إسبانيا مبدياً استعداده لتقديم العون والمساعدة.

وبعد مراسلات طويلة بين موسى بن نصير والخليفة الوليد بن عبد الملك، وافق الخليفة على غزو إسبانيا وقد أوكل موسى بن نصير مهمة الفتح إلى القائد طارق بن زياد.

وقاد طارق بن زياد جيش المسلمين، واجتاز المضيق الذي يفصل بين شمال إفريقيا وأوروبا ـ والذي أصبح فيما بعد يعرف باسمه «مضيق طارق بن زياد» ـ والتقى الجمعان بالقرب من نهر «لكة» وكانت هذه الموقعة «أم المعارك» وفيها ألقى طارق بن زياد خطبته المشهورة التي يقول فيها:

«أيها الناس، أين المفرّ؟ البحر من ورائكم والعدو من أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر. . وإني لم أحذّركم أمراً أنا عنه بنجوة. . . واعلموا إنكم إن صبرتم على الأشقّ قليلاً استمتعتم بالأرفه الألذّ طويلاً. . وإن حملت فاحملوا وإن وقفت فقفوا. ثم كونوا كهيئة رجل واحدٍ في القتال. ألا

وإني عامد إلى طاغيتهم[1] بحيث لا أتهيبه حتى أخالطه[2] أو أُقتل دونه، فإن قُتلتُ فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم وتولّوا الدّبر لعدوّكم فتتبددوا بين قتيل وأسير».

ومن المؤرخين من يقول أن طارق بن زياد ألقى هذه الخطبة بعدما أحرق مراكبه كي يحث المسلمين على القتال ويشحذ عزائمهم، ومنهم من أنكر هذه القصة حتى أنه أنكر أن تكون هذه الخطبة لطارق بن زياد أصلاً، وسنفرد باباً خاصاً لهذه القصة.

وانقضّ جيش المسلمين على جيش القوط انقضاضة رجل واحدٍ، فدبّ الرعب في قلوبهم وتفرقوا يلذون بالفرار. ولكن جيش المسلمين تتبّعهم ثلاثة أيام بلياليها كما يروي المؤرخون.

أما قائدهم «لذريق» فإن طارق بن زياد تتبّعه بنفسه وصوّب رمحه نحوه وأرداه صريعاً يتخبّط في دمائه، وعندها صاح طارق بأعلى صوته: «قتلتُ الطاغية. قتلتُ لذريق» وبالطبع كان لصيحته الأثر الكبير عند الجيش الفاتح.

وبعد هذه المعركة الحاسمة أصبحت الطريق ممهدة أمام المسلمين لفتح البلاد، وبالفعل فقد تابع طارق بن زياد مسيرته، وفتح المدن الإسبانية واحدة تلو الأخرى. إلّا أنه احتاج إلى العون والمدد فكتب إلى موسى بن نصير يطلب المدد قائلاً: «إنّ الأمم قد تداعت علينا من كل ناحية فالغوث الغوث». ولم يتوانَ موسى بن نصير في إرسال المدد إلى طارق بن زياد.

ويروي بعض المؤرخين أن موسى أسعف طارق بخمسة آلاف من الجند، حين يرى بعضهم أن موسى بن نصير سارع بنفسه إلى نجدة طارق بن زياد على رأس جيش قوامه ثمانية عشر ألف مقاتل من العرب والبربر، واتحد جيش موسى بن نصير مع جيش طارق بن زياد، حيث خاض الجيش الموحد معركة

---

(١) هو الطاغية «للذريق أو رودريك» كان يمارس الاضطهاد على شعبه.
(٢) أقتله وأخلط دمه بشعره أو جبينه.

«وادي موسى» التي هزم فيها المسلمون جموع القوط ودانت لهم بعد هذا النصر الأندلس بأكملها[(١)]

كان لطارق بن زياد فضل الأنيس في إخضاع معظم القبائل البربرية في شمال إفريقيا، ومهما اختلف الرواة حول جيش طارق بن زياد وموسى بن نصير فإنهم يردّون الفضل في فتح الأندلس إلى هذا البطل القادم من قبائل البربر القائد طارق بن زياد. ومن الطبيعي بعد ذلك أن يكون له الفضل في هزم جموع «القوط» في معركة «لكة» ومعركة «وادي موسى».

يقول الشيخ محمد سويد في كتابه رجال نفتقدهم[(٢)]: وألقت السفن مراسيها قبالة الجزيرة الخضراء عند صخرة الأسد التي حملت اسم طارق إلى يومنا هذا فسميت «جبل طارق» ونزل المسلمون في مكان يقال له «البحيرة» جنوب إسبانيا، وكان الملك «لذريق أورودريك» مشغولاً حينئذٍ بثورة «أخيلا» في شمال إسبانيا ولما علم بنزول العرب في أرض إسبانيا أدرك ما يحدث ببلاده من الخطر، فجمع جيشاً كبيراً بلغ سبعين ألفاً ـ وقيل مئة ألف ـ ولكن ذلك لم يُثن طارقاً عن عزمه بل سار يفتح المدن والقلاع واحدة بعد الأخرى.

ويروى أن عجوزاً من أهل الجزيرة وقعت أسيرة في أيدي المسلمين فلما رأت طارقاً قالت له: إنه كان لها زوج عالم بالحدثان فكان يحدثهم عن أمير يدخل بلادهم هذه فيتغلب عليها وأنه ضخم الهامة وقالت لطارق أنت كذلك. وبعث طارق إلى موسى بن نصير يطلب منه المدد حتى يستطيع مجابهة جيش «لذريق» فأمدّه بخمسة آلاف وبذلك بلغ عدد جيشه اثني عشر ألف مقاتل، وقد ثارت مخاوف المسلمين حين علموا باقتراب جيش «لذريق» منهم، ولكن طارقاً لم يزدد إلّا حماسة واستبسالاً فخطب جيشه وبشّرهم بما سيفتحون من بلاد ويصيبون من غنائم فقال: أيها الناس أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو

---

(١) الأثبت عند الرواة والمؤرخين أن موسى بن نصير مدّ طارق بن زياد بخمسة آلاف مقاتل استطاع بواسطتها أن يُكمل الفتح وبعدها توجّه بنفسه على رأس جيش كبير لمساندة طارق بن زياد.

(٢) راجع المصدر السابق.

أمامكم وليس لكم والله إلّا الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأقواته موفورة وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم، ولم تنجزوا لكم أمراً، ذهب ريحكم وتعوّضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة بمناجزة هذا الطاغية، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت، وإني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة، حملتكم على خطةٍ أرخص متاع فيها النفوس، أبدأ أنا بنفسي. واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً استمتعتم بالأرفه طويلاً وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عرباناً، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأخواناً، ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة، وإني عند ملتقى الجيشين حامل بنفسي على طاغية القوم «لذريق» فقاتله إن شاء الله.

ولما أصبح الصباح التقى طارق بجيش «الذريق» على مقربة من نهر «وادي لكة» ويسميه العرب وادي «بكة» ويصب في المضيق عند رأس الطرف الآخر، وكان لطارق وجنوده النصر على جيش «الذريق» فهجم طارق على جيش «الذريق» فقتله، وقيل إنه جرحه فرمى بنفسه في نهر «وادي لكة» فغرق فيه وحمل النهر جثته إلى المحيط، ولا تزال نهايته سرّاً إلى يومنا هذا. وحلت الهزيمة بجيشه وتشتت شمله وانتصر المسلمون.

يقول ستانلي لينول: إن انتصار المسلمين في وادي «لكة» ألقى بإسبانيا كلها في أيديهم. ويقول «المقري» إن الإسبان كانوا يسلمون بلداً بلداً ومعقلاً معقلاً. وكتب طارق إلى موسى بن نصير يبشره بما أحرزه من نصر وما استولى عليه من مغانم فدبّت الغيرة في نفسه وأراد أن يكون له شرف فتح الأندلس فكتب إلى طارق يأمره بأن يتوقف عن الزحف ولا يتجاوز مكانه حتى يلحق به واستخلف موسى مكانه ابنه عبد الله على «القيروان» وخرج في عسكر ضخم، وبصحبته خبيب بن كتدة الفهري. أما طارق فقد جمع كبار قادته واستشارهم

في أمر التوقف عن القتال، فرأوا أن التوقف يعرضهم للخطر، ويعطي القوط فرصة التقاط الأنفاس والعودة إلى القتال من جديد، فأخذ برأيهم وتابع زحفه على مدن إسبانيا. وقسم جنده إلى ثلاث فرق وزعها في شبه الجزيرة فسقطت «قرطبة» الحصينة، ومن غريب المصادفات أن اليهود ساعدوا المسلمين في فتح المدن الإسبانية لكونهم ذاقوا الذل والهوان في حكم القوط، أضف إلى ذلك الفزع والخوف الذي سيطر على نفوس الإسبان من العرب فسقطت «كورة ربة» وفتح أكبر مدائنها «مالقة» ثم كورة البيرة حيث غرناطة ثم فتحت مدينة «أربولة» أبوابها للعرب وتبعتها «طليطلة» حاضرة مملكة القوط وطارد المسلمون الإسبان المنهزمين إلى أن وصلوا إلى «حليقية» في الشمال الغربي من الأندلس.

أما موسى بن نصير فإنه لما دخل الأندلس على رأس جيش يتألف من العرب والبربر فتح مدينة «قرمونة» ثم «إشبيلية» وكانت عاصمة إسبانيا قبل أن يغلبها «القوط» ويتخذوا «طليطلة» عاصمة لهم، وتابع موسى زحفه ففتح مدينة «ماردة» التي امتازت بقصورها ومصانعها وكنائسها بعد أن استعصت على المسلمين فترة. ثم فتحوها يوم عيد الفطر سنة ٩٤ هجرية. ولكن أهلها لم يلبثوا أن انقضوا على المسلمين فقتلوا منهم ثمانين رجلاً. فوجه موسى إليهم ولده عبد العزيز ففتحها من جديد، وامتدت فتوح موسى إلى «برشلونة» شرقاً و«أربونا» في الجوف و«قادس» في الجنوب الغربي و«جليقية» في الشمال الغربي حتى التقى بطارق في كورة «طلبيرة» فوبّخه وضربه بالسوط واعتبره مستبداً برأيه مخالفاً لأوامره وطالبه بالأموال والغنائم ثم سجنه، ولكن طارقاً تمكن وهو في سجنه من الاتصال بالخليفة واطلاعه على ما حصل فكتب الخليفة إلى موسى بإطلاقه وردّه إلى عمله، فتصالح الرجلان وسارا معاً لفتح شمالي إسبانيا ففتحا إقليم «أرغونة» و«قشتالة» و«قطلونية» كما استوليا على «سرقسطة» واستمرا في زحفهما حتى بلغا جبال «البرانس» وبذلك تمّ فتح إسبانيا. ولم تقف عزيمة موسى عند هذا الحد، بل عزم على مواصلة فتوحه حتى يصل إلى عاصمة الخلافة. ولكن الوليد أمره بالكف عن التوسع واستدعاه هو وطارقاً لأنه لم يرضَ أن يعرّض المسلمين للخطر ولأنه كان يخشى ازدياد نفوذ موسى واستقلاله بتلك البلاد. فعادا وقبل وصولهما مرض الوليد مرض

الموت وتسلم الحكم أخوه سليمان الذي كان يحقد على موسى لأسباب شخصية ولمخالفته أمره حيث أمره أن يبطئ في العودة حتى يموت الوليد فيظفر وحده بالغنائم والأسلاب».

ومهما يكن فإن القائد طارق بن زياد وعلى الرغم من قلة جنده وشحّ المساعدات، وعلى الرغم من الصعوبات والمشقّات التي واجهها في بلاد يدخلها لأول مرّة، إلا أنه استطاع فتح الأندلس وتحقيق الانتصار.

ولكن هذا كلّه لم يشفع له عند موسى بن نصير الذي ربما يكون قد توجه للأندلس لا ليقدّم المساعدات لطارق بن زياد بعد رسالته إليه، وإنما لينسب فتح الأندلس لنفسه. وقد كان موسى بن نصير حاقداً على طارق بن زياد لأنه تابع زحفه حين أمره أن يتوقف وبدلاً من تهنئته على الفتوح التي حقّقها قام بضربه بالسوط وإهانته وتوبيخه ثم عزله وسجنه ولم يطلق سراحه ـ كما ذكرنا ـ إلّا بعد تدخل الخليفة الوليد بن عبد الملك.

وبعد أن تصالح الرجلان توجها إلى دمشق ومعهما أربعمائة من أفراد الأسرة المالكة وجموع من الأسرى والعبيد والعديد من النفائس.

ولما وصلا طبريا في فلسطين، طلب منهما سليمان بن عبد الملك ـ ولي العهد ـ التأخر حتى يموت الخليفة الوليد الذي كان يصارع الموت. لكنهما تابعا تقدّمهما ودخلا مع الغنائم إلى دمشق.

وهذا الفعل كان كافياً لغضب سليمان بن عبد الملك عليهما لأنه كان يريد أيضاً أن ينسب الغنائم والفتح لنفسه بعد موت الخليفة الوليد.

وعندما تولى سليمان بن عبد الملك الخلافة، عزل موسى وأولاده، وقتل ابنه عبد العزيز بن موسى الذي شارك في فتح الأندلس.

أما القائد طارق بن زياد فقد أهمل وبقي دون شأن يذكر بقيّة عمره، ومات وحيداً فقيراً عام ٧٢٠م.

لقد عانى القائد طارق بن زياد من الظلم والإهانة والضرب والحبس عند موسى بن نصير، فحسب أن إنصافه يكون عند الخليفة الوليد بن عبد الملك، ولكن هيهات.. لهذا توجّه طارق إلى الشام، ولكن بعد وصوله مع موسى بن

نصير إلى دمشق، مات الخليفة الوليد بعد أربعين يوماً، وتسلّم السلطة ولي العهد الذي كان يتوعدهما، والذي انتقم من كليهما.

مات طارق بن زياد معدماً، لا يملك من حطام الدنيا شيئاً، وقيل أنّه شوهد في آخر أيّامه يتسول أمام المسجد!! نعم، مات القائد العظيم معدماً وكان يستحق أن يكون والياً على البلاد التي فتحها مثله مثل عمرو بن العاص الذي فتح مصر وتولى ولايتها...

# موسى بن نصير وطارق بن زياد

موسى بن نصير: هو أبو عبد الرحمن موسى بن نصير بن عبد الرحمن زيد اللخمي، ولد في خلافة عمر بن الخطاب ـ رضي اللّه عنه ـ سنة (١٩هـ)، وأصله من وادي القرى بالحجاز، وكان أبوه على حرس معاوية ـ رضي اللّه عنه ـ. ونشأ موسى في دمشق، وولي غزو البحر لمعاوية، فغزا قبرص، وبنى بها حصوناً، وخدم بني مروان ونبه شأنه، وولي لهم الأعمال، فكان على خراج البصرة في عهد الحجاج، وغزا إفريقيا في عهد ولاية عبد العزيز بن مروان. ولما آلت الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك ولّاه إفريقيا الشمالية وما وراءها من المغرب سنة (٨٨هـ)، فأقام في القيروان، واستعمل مولاه طارق بن زياد على طنجة، وتعاون مع مولاه طارق في فتح الأندلس إلى أن وصلا إلى جبل طارق وسفوح جبال البرانس. وكانت نفسه توّاقة لفتح بلاد فرنسا، وإيطاليا، ولكن الخليفة الوليد بن عبد الملك كان قلقاً على الجيش وخاف من عواقب الإيغال عامة، وتوسع نفوذ موسى بن نصير وطارق بن زياد في تلك البلاد وتملكهم إيّاها بصورة خاصة، فكتب إلى موسى يأمره بالعودة إلى دمشق فأطاع موسى الأمر، واستصحب طارقاً معه، واستخلف ابنه عبد العزيز على قرطبة، وكان موسى بن نصير عاقلاً شجاعاً كريماً تقياً لم يُهزم له جيش قط.. وكانت سياسته في البلاد التي تم له فتحها قائمة على إطلاق الحرية الدينية لأهلها، وإبقاء أملاكهم وقضائهم في أيديهم ومنحهم الاستقلال الداخلي على أن يؤدوا الجزية. وتوفي موسى بن نصير سنة (٩٧هـ)، بعد حياة مليئة بالكفاح والجهاد والفتوحات الإسلامية.

خرج موسى بن نصير من إفريقيا غازياً إلى «طنجة»، وهو أول من نزل طنجة من الولاة وبها البربر بطون من «البتر» و«البرانس» ممن لم يكن قد دخل في الطاعة، فلما دنا من طنجة بث السرايا فانتهت خيله إلى «السوس» الأدنى

فوطئهم وسباهم، وأدوا إليه الطاعة، وولى عليهم والياً وأحسن فيهم السيرة، ووجه بسر بن أبي أرطأة إلى قلعة من مدينة القيروان على ثلاثة أيام ففتحها، وسبى الذرية وغنم الأموال. ثم عزل موسى والي طنجة وولى طارق بن زياد ثم انصرف إلى القيروان، وكان طارق قد خرج معه بجارية يقال لها أم حكيم، فأقام طارق هناك مرابطاً زماناً وذلك في سنة اثنين وتسعين هجرية.

## أحداث المجاز

كان لمجاز الذي بينه وبين أهل الأندلس عليه رجل من العجم يقال له «يليان» صاحب سبتة، وكان يليان يؤدي الطاعة لِلذريق صاحب الأندلس. وكان لذريق يسكن طليطلة، فراسل طارق يليان ولاطفه حتى تهادنا، وكان يليان قد بعث بابنة له إلى لذريق صاحب الأندلس ليؤدبها ويعلمها فأوقع بها لذريق، وبلغ ذلك يليان، فقال: لا أرى له عقوبة ولا مكافأة إلا أن أدخل عليه العرب، فبعث إلى طارق أني مدخلك الأندلس، وطارق يومئذ بتلمسين، وموسى بالقيروان، فقال طارق: «فإني لا أطمئن إليك، حتى تبعث إلي برهينة، فبعث إليه بابنته ولم يكن له ولد غيرها، فأقرها طارق بتلمسين واستوثق منها، ثم خرج طارق إلى يليان وهو بسبتة على المجاز ففرح به حين قدم عليه وقال له: «أنا مدخلك الأندلس، وكان فيما بين المجازين جبل يقال له اليوم «جبل طارق» فيما بين سبتة والأندلس، فلما أمر جاءه يليان بالمراكب فحمله فيها إلى المجاز فأكمن فيها نهاره فلما أمسى رد المراكب إلى من بقي من أصحابه، فحملوا إليه حتى لم يبق منهم أحد، ولا يشعر بهم أهل الأندلس ولا يظنون إلا أن المراكب تختلف بمثل ما كانت تختلف به من منافعهم، وكان طارق في آخر فوج ركب، فجاز إلى أصحابه، وتخلف يليان ومن كان معه من التجار بالخضراء ليكون أطيب لأنفس أصحابه وأهل بلده.. وبلغ خبر طارق ومن معه أهل الأندلس ومكانهم الذي هم به.. وتوجه طارق فسلك بأصحابه على قنطرة من الجبل إلى قرية يقال لها «قرطاجة» وزحف يريد قرطبة.

## الزحف إلى قرطبة ونهاية الفتح

زحف طارق بن زياد يريد قرطبة وتلقته جنود قرطبة، واجترؤوا عليه

للذي رأوا من قلة أصحابه، فاقتتلوا فاشتد قتلهم ثم انهزموا، فلم يزل يقتلهم حتى بلغوا مدينة قرطبة، وبلغ ذلك لذريق فزحف إليهم من طليطلة فالتقوا بموضع يقال له شذرونة على واد يقال له اليوم «وادي أم حكيم»، فاقتتلوا قتالاً شديداً فقتل الله عزّ وجلّ «لذريق» ومن معه. وكان مغيث الرومي يريد قرطاجة، ومضى طارق إلى طليطلة فدخلها وسأل عن المائدة ولم يكن له هم غيرها، وهي مائدة سليمان بن داود.. فقيل لطارق أن المائدة في قلعة يقال لها فراس، مسيرة يومين من طليطلة، وعلى القلعة ابن أخت لذريق، فبعث إليه طارق بأمانه وأمان أهل بيته فنزل إليه، فأمنه ووفى له، فقال له طارق: ادفع إليّ المائدة فدفعها إليه وفيها من الذهب ما فيها، وجعل لها رجلاً سواها، فقومت المائدة بمائتي ألف دينار لما فيها من الجوهر، وأخذ طارق ما كان عنده من الجوهر، والسلاح، والذهب، والفضة والآنية وأصاب سوى ذلك من الأموال ما لم ير مثله، فحوى ذلك كله ثم انصرف إلى قرطبة وأقام بها.. وكتب إلى موسى بن نصير يعلمه بفتح الأندلس وما أصاب من الغنائم، فكتب موسى إلى الوليد بن عبد الملك يعلمه بذلك، ونحله نفسه وكتب موسى لطارق ألا يجاوز قرطبة حتى يقدم عليه وشتمه شتماً قبيحاً.

## خروج موسى بن نصير إلى الأندلس لجمع الغنائم

خرج موسى بن نصير إلى الأندلس في رجب سنة ثلاث وتسعين بوجوه العرب والموالي وعرفاء البربر، حتى دخل الأندلس، وخرج مغيظاً على طارق وخرج معه خبيب بن أبي عبيدة الفهري، واستخلف على القيروان ابنه عبد الله بن موسى، وكان أسن ولده، فأجاز من الخضراء ثم مضى إلى قرطبة، فتلقاه طارق فترضاه، وقال له: «إنما أنا مولاك وهذا الفتح لك، فجمع موسى من الأموال ما لا يقدر على صفته، ودفع طارق كل ما كان غنم إليه. وجاء رجل إلى موسى بن نصير فقال: «ابعثوا معي أدلكم على كنز» فبعث معه فقال لهم الرجل: «انزعوا هاهنا فنزعوا» قال: فسال عليهم الزبرجد، والياقوت شيء لم يروا مثله قط فلما رأوه تهيبوه، وقالوا: لا يصدقنا موسى بن نصير فأرسلوا إليه حتى جاء ونظر عليه، وكتب موسى بن نصير حين فتحت الأندلس إلى عبد الملك أنها ليست بالفتوح ولكنه الحشر. وقد كان الرجل ليأخذ الهر فيذبحها

ويرمي ما في جوفها ثم يحشوه مما غل، ثم يخيط عليه ويرمي بها إلى الطريق ليتوهم من رآها أنها ميتة، فإذا خرج أخذها، وكان الرجل ينزع نصل سيفه فيطرحه ويملأ الجفن غلولاً ويضع قائم السيف على الجفن.

## ما بعد المعركة والغنائم

بعد انتهاء المعركة وجمع الغنائم وحصرها، أخذ موسى بن نصير بطارق فشده وثاقاً وحبسه وهمَّ بقتله، وكان مغيث الرومي غلاماً للوليد بن عبد الملك فبعث إليه طارق إنك إن رفعت أمري إلى الوليد، وإن فتح الأندلس كان على يدي وإن موسى حبسني يريد قتلي أعطيتك مائة عبد، وعاهده على ذلك فلما أراد مغيث الانصراف ودع موسى بن نصير وقال له: لا تعجل على طارق ولك أعداء، وقد بلغ أمير المؤمنين أمره وأخاف عليك وجده وانصرف مغيث، وموسى بالأندلس، فلما قدم مغيث على الوليد أخبره بالذي كان من فتح الأندلس على يد طارق، ويحبس موسى إياه والذي أراد به من القتل، فكتب الوليد إلى موسى يقسم له بالله لئن ضربته لأضربنك ولئن قتلته لأقتلن ولدك به. ووجه الكتاب مع مغيث الرومي فقدم به على موسى بالأندلس فلما قرأه أطلق طارقاً وخلى سبيله ووفى طارق للمغيث بالمائة عبد الذي كان قد جعل له.

## خروج موسى بن نصير من الأندلس

خرج موسى بن نصير من الأندلس، بغنائمه وبالجوهر والمائدة واستخلف على الأندلس ابنه عبد العزيز بن موسى، وكانت إقامة موسى بالأندلس سنة ثلاث وتسعين وأربع وتسعين وأشهراً من سنة خمس وتسعين فلما قدم موسى إفريقية كتب إليه الوليد بن عبد الملك بالخروج إليه، فخرج واستخلف على إفريقية ابنه عبد الله بن موسى وسار موسى بتلك الغنائم والهدايا حتى قدم مصر، ومرض الوليد بن عبد الملك، فكان يكتب إلى موسى يستعجله ويكتب إليه سليمان بالمكث والمقام ليموت الوليد ويصير ما مع موسى إليه، وخرج موسى حتى إذا كان بطبرية أتته وفاة الوليد فقدم على سليمان بتلك الهدايا فسر سليمان بذلك.. وأمر موسى بن نصير برفع حوائجه وحوائج من معه ثم انصرف إلى المغرب.

في عام ٨٦هـ وفي زمن الوليد بن عبد الملك الأموي تولى موسى بن نصير المغرب، فأخضع البربر، ونشر الأمن في هذه الربوع، واستطاع أن يفتح طنجة، فترك بها حامية يقودها مولاه طارق بن زياد، وعهد إليه بالعمل على نشر الإسلام في المنطقة، وعسكر طارق بمن معه من المسلمين على سواحل بحر الزقاق، وبدأت أنظارهم تتجه نحو إسبانيا.

وعاد موسى إلى القيروان، وعلم طارق أن ميناء سبتة على مقربة منه فبدأ يتحرك نحوه، وكان حاكم سبتة «يليان» قد تحرر من سلطان الدولة البيزنطية، وأصبح كالحاكم المستقل في سبتة وما حولها، واحتك يليان بالمسلمين وأحس بقوتهم وضغطهم عليه، فعمل على كسب ود طارق بن زياد، وكان طارق يتطلع لفتح إسبانيا، فراسل يليان ولاطفه وتهاديا حتى يستفيد منه.

وأما الأندلس (إسبانيا) فقد حكمها القوط منذ عام ٥٠٧م، غير أن أمرهم بدأ يضعف، وقسمت إسبانيا إلى دوقيات، يحكم كل منها دوق، يرجع في سلطنته إلى الملك في طليطلة، وقسم المجتمع إلى طبقات؛ أعلاها طبقة الأشراف أصحاب الأموال والمناصب وحكام الولايات والمدن والإقطاعيون، ثم طبقة رجال الدين الذين ملكوا الضياع وعاملوا عبيدهم بالعسف، ثم طبقة المستخدمين وهم حاشية الملك وموظفو الدولة، ثم الطبقة الوسطى وهم الزراع والتجار والحرفيين وقد أثقلوا بالضرائب، وأخيراً الطبقة الدنيا وهم الفلاحين والمحاربين والعاملين في المنازل، وبلغ البؤس بأهل إسبانيا أن حل بهم الوباء في السنوات: ٨٨، ٨٩، ٩٠هـ حتى مات أكثر من نصف سكانها.

وفي عام ٧٠٩م تولى العرش «وتيكا» الذي يسميه العرب «غيطشة»، ولكنه عزل في نهاية السنة نفسها ثم قتل، واستلم الحكم بعده «أخيلا»، وفي العام التالي ٧١٠م وصل رودريك ـ ويسميه العرب لذريق ـ إلى الحكم بعد عزل أخيلا، وغرق لذريق في الشهوات حتى نفرت منه القلوب، وانقسمت البلاد في عهده، فظهر حزب قوي بزعامة أخيلا الذي حاول استرداد عرشه وحزب آخر ناصر الملك.

ولما كان يليان حليفاً لغيطشة فقد حاول مد يد العون إلى حليفه، ولكن

أنصار لذريق ردوه عن الأندلس إلى العدوة الإفريقية، فتحصن في سبتة، وأخذ يرقب الأحداث.

وتذكر الروايات أن يليان هو الذي دعا موسى لغزو الأندلس، وذلك أن يليان كان قد أرسل ابنته إلى قصر لذريق لتتأدب، وتنشأ فيه أسوة بغيرها من بنات القوط في ذلك الزمان، وأن لذريق بصر بالفتاة وطمع فيها ونال منها، فكتبت إلى أبيها بخبرها. فدفعه ذلك إلى التفكير في الانتقام من لذريق، فاتصل بطارق وزين له فتح الأندلس، وجعل نفسه وأتباعه أدلاء للمسلمين بعد أن اطمأن إليهم، وزار يليان موسى بن نصير في القيروان لإقناعه بسهولة الفتح، وطبيعي أن يشك موسى في صحة المعلومات فطلب من يليان أن يقوم بغارة سريعة، ففعل وعاد محملاً بالغنائم.

وليس هذا هو السبب الحقيقي للفتح، ولكنه عجل به وساعد عليه، وإلا فأعين طارق بن زياد على الأندلس منذ أن وصل طنجة، ثم إن المسلمين فتحوا فرنسا وسويسرا وصقلية وجزر المتوسط كلها دون مساعدة يليان، كما أن المسلمين منذ أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه يفكرون بفتح القسطنطينية من جهة أوروبا بعد فتح الأندلس، وقال عثمان حينها: «إن القسطنطينية إنما تفتح من قبل البحر، وأنتم إذا فتحتم الأندلس فأنتم شركاء لمن يفتح القسطنطينية في الأجر آخر الزمان».

وكتب موسى يستأذن الخليفة بدمشق، فجاء رد الخليفة الوليد: «أن خضها بالسرايا حتى تختبرها، ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال»، فكتب إليه موسى: «إنه ليس ببحر وإنما هو خليج يكاد الناظر أن يرى ما خلفه»، فكتب إليه الخليفة: «وإن كان، فاختبره بالسرايا»، فأرسل موسى مولاه طريف، وكان في مائة فارس وأربعين راجلاً، في مهمة استطلاعية، وجاز البحر في أربعة مراكب أعانهم بها يليان، وذلك في شهر رمضان، ونزل المسلمون في جزيرة صغيرة على مقربة من الموضع الذي قامت فيه بلدة حملت اسم طريف، وخفّت قوة من أنصار يليان وأبناء غيطشة لعونهم وقامت بحراسة المعبر حتى تم نزولهم، ومن ذلك الموضع قام طريف وأصحابه بسلسلة من الغارات السريعة على الساحل غنموا فيها كثيراً، وشجع هذا موسى على عبور الأندلس،

واختار موسى للفتح طارق بن زياد، وركب طارق السفن في سبعة آلاف من المسلمين، جلّهم من البربر، وبينما هو في عرض المضيق على رأس سفينته إذ أخذته سنة من النوم، فرأى النبي ﷺ وحوله المهاجرون والأنصار، قد تقلدوا السيوف، وتنكبوا القسيّ، فيقول له رسول الله ﷺ: «يا طارق تقدم لشأنك»، ونظر إليه وإلى أصحابه قد دخلوا الأندلس قدّامه، فيهب طارق مستبشراً. وألقت السفن مرساها قبالة الجزيرة الخضراء عند جبل سمي فيما بعد جبل طارق. وقبيل الالتحام أجمع أولاد غيطشة على الغدر بلذريق، وأرسلوا إلى طارق يعلمونه أن لذريق كان تابعاً وخادماً لأبيهم، فغلبهم على سلطانه بعد مهلكه، ويسألونه الأمان، على أن يميلوا إليه عند اللقاء فيمن يتبعهم، وأن يسلم إليهم إذا ظفر ضياع والدهم بالأندلس كلها، فأجابهم طارق إلى ذلك وعاقدهم عليه، وأرسل لذريق رجلاً من أصحابه ليعاين له جيش المسلمين، فلما عاد قال له: خذ على نفسك، فقد جاءك منهم من لا يريد إلا الموت، أو إصابة ما تحت قدميك.

وقدم طارق نفراً من السودان بين يدي جيشه ليتلقوا ـ بما عرف عنهم من الصبر والثبات ـ صدمة الجيش الأولى، وبدأ القتال يوم الأحد الثامن والعشرين من رمضان سنة ٩٢هـ، فأظهر فرسان القوط مقدرة عظيمة أول المعركة، وثبتوا لضغط المسلمين، وأخذ يليان ورجاله يخذلون الناس عن لذريق ويصرفونهم عنه، قائلين لهم: إن العرب جاؤوا للقضاء على لذريق فقط، وإنهم إن خذلوا لذريق اليوم صفت لكم الأندلس بعد ذلك، وأثّر هذا الكلام في جنود القوط فقد كان كثير منهم يكرهون لذريق، فخرج فرسانه من المعركة وتركوه لمصيره، فاضطرب نظام جيشه وفر الكثير منهم، وخارت قوى لذريق ولم تغنه شجاعته شيئاً، ويئس من النصر لما رأى جنده يفرون أو ينضمون للمسلمين. وهجم طارق على لذريق فضربه بسيفه فقتله، وقيل: إنه جرحه ورمى بنفسه في وادي لكة فغرق، وحمل النهر جثته إلى المحيط، وبعد مصرعه احتل المسلمون المعسكر وغنموه، واتجه طارق لفتح المدن الرئيسة في الأندلس ففتح شذونة ومدوّرة وقرمونة وإشبيلية واستجة، وكانت فيها قوة تجمعت من فلول عسكر لذريق فقاتلوا قتالاً شديداً حتى أظهر الله المسلمين عليهم، ولم يلق المسلمون فيما بعد ذلك حرباً مثلها، وأقاموا على الامتناع أولاً إلى أن ظفر طارق بأمير

المدينة على النهر وحده، فوثب عليه طارق في الماء فأخذه وجاء به إلى المعسكر، ثم صالحه طارق وخلى سبيله، واستمر طارق في زحفه، وانتهى إلى عاصمة الأندلس طليطلة وتمكن من فتحها.

وجاءته الرسائل من موسى تأمره بالتوقف، وعبر موسى إلى الأندلس بناء على استغاثة وجهها إليه طارق، وذلك في شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين، بجيش عدده ثمانية عشر ألفاً، ففتح بعض المدن كشذونة وقرمونة وإشبيلية وماردة، وهي مدن لم يفتحها طارق، ثم التقى بطارق ووبخه على أنهم توغلوا أكثر مما ينبغي، وأن خطوط مواصلاتهم في الأندلس الواسعة في خطر، فقد بقيت مناطق واسعة في شرق الأندلس وغربها لم تفتح.

وأخيراً لقد قررت معركة «وادي لكة» مصير الأندلس لمدة ثمانية قرون، وظل الأثر العربي الإسلامي في إسبانيا ليوم الناس هذا[١]

(١) فتح الأندلس معركة وادي لكة، للدكتور شوقي أبو خليل.

# فتح الأندلس
# بداية مفرحة ونهاية...

إذا عدنا بالزمن إلى عهد المسلمين في بلاد الأندلس ورأينا رفعة المجد الديني والسياسي والرّخاء العام التي تحقّقت في تلك البلاد. أم إذا نظرنا إلى علو الصرح العلمي والأدبي الذي شيّده المسلمون خاصة والعرب عموماً في تلك الناحية من العلم آنذاك ونظرنا إلى أوروبا وقتها، لوجدنا أن أوروبا وقتها كانت لا تزال نائمة تحت أقدام الزمن، تلعقُ أيامها فقراً وجوعاً وتخلّفاً.

ماذا لو نظرنا وأعدنا النظر؟ سنسأل حتماً: ماذا حصل لو أن الوجود الإسلامي طال عمره إلى الآن في إسبانيا؟

والجواب البديهي يكون: لو قدّر للوجود الإسلامي البقاء في إسبانيا إلى يومنا هذا لكان للأمور شأنٌ آخر، وكان للمسلمين وضع يختلف اختلافاً تامّاً عمّا نراه اليوم في الغرب الأوروبي.

وعلى كل حال فإن الحلم الأندلسي بدأ جميلاً مفرحاً وانهار محزناً...

بدأ الحلم الجميل من المغرب، وتحديداً بعد أن نجح القائد المسلم عقبة بن نافع الفهري في أن يكتسح القطاع الشمالي من إفريقيا، ويصل بفرسانة إلى المغرب الأقصى[١] ولما وصل إلى «طنجة» لم يجد حاكمها «يليان» مفرّاً من الهدنة ومسالمة الغازي المنتصر إذ ليس له طاقة على قتاله، وبالفعل فقد سالمه عقبه بن نافع وعمل «يليان» في خدمة المسلمين.

بعد ذلك تابع عقبة بن نافع زحفه حتى وصل بجيشه إلى مدينة «ماسة»[٢]

(١) كان ذلك عام ٦٢هـ.

(٢) مدينة واقعة على المحيط الأطلنطي.

ويقول الرواة إنّ «عقبة بن نافع» دخل بفرسه إلى عرض البحر حتى طال الماء تلابيبه[١] وبعدها ردّد مناجياً ربّه وقال: «لولا البحر منعني لمضيت في البلاد إلى مسلك ذي القرنين مدافعاً عن دينك مقاتلاً من كفر بك».

وهنا يبدأ فصل جديد في إدراك الحلم، إذ وقتها تولّى القائد موسى بن نصير إمارة الحكم في ولاية إفريقيا بأمر عبد العزيز بن مروان. فقد تولى موسى الإمارة والجزء الأعظم من المغرب قد دان للمسلمين دينيّاً وسياسياً، رغم مواصلة قبائل البربر لحركات التمرد والعصيان، الأمر الذي دفع بموسى بن نصير إلى شنّ حملات متتالية للحد من حركات البربر مستخدماً جميع الوسائل لتهدئتهم حيناً وكسر شوكتهم ومنع هيبتهم أحياناً كثيرة.

وكان من شأن تلك الحملات أن بدأ البربر يرهبون جانب الدولة الإسلامية، وشرعت بعدها القبائل البربرية في الدخول إلى الإسلام والإقبال على تعلّم اللغة العربية والقرآن الكريم.

ولا يشك المؤرخون ـ مسلمون وغربيون ـ في أن فتح المغرب والقضاء على نزعة التمرد لدى القبائل البربرية، كان يعدّ الخطوة الأولى والأساسية ـ لوصول المسلمين إلى إسبانيا.

فمع استِتْباب الأمر لموسى بن نصير في بلاد المغرب كانت النيّة قد اتجهت إلى عبور البحر والدخول إلى القطاع الجنوبي من إسبانيا، لذلك بدأ موسى بالاستعداد للحرب والتهيؤ للغزو. وكان لا بدّ له من اختيار قائد فذّ يعاونه ويستطيع أن يسيطر على الجند بقوة شخصيته وذكائه. وكان لا بدّ من أن يكون هذا القائد مقرّباً من الجند الذين دخلوا في الإسلام ومن ثمّ أصبحوا من أركان الجيش ودعائمه. ولهذه المعطيات فقد اختار موسى بن نصير مولاه طارق بن زياد ليكون قائد تلك الحملة، لما اشتهر عن هذا القائد من شجاعة وبلاء حسن في ساحات الوغى، وثبات في الرأي وعزم في المواقف[٢]

---

(١) وصل الماء إلى طرف ثوبه.

(٢) يقول بعض الرواة أن الجيش الذي غزا الأندلس كان في معظمه ـ وقال آخرون بأكمله ـ من البربر الذين أسلموا زمن موسى بن نصير. الأمر الذي يرجّح عندهم أن طارق بن زياد كان بربرياً. وإلا ما كان باستطاعته قيادتهم وضبطتهم تحت لوائه وهو المعروف عنهم ميلهم الأصيل للتمرد والعصيان.

وفي الخامس من رجب عام ٩٢ للهجرة، انطلقت أربع سفن تمخر عباب البحر متجهةً نحو الأندلس تحمل على متنها جيشاً قوامه سبعة آلاف مقاتل.

ـ ينقل الرواة أن ثلاثماية جندي فقط ممّن كان على متن البواخر كان عربياً، أما بقية الجند فهم من البربر الذين أسلموا في ذلك الوقت ـ.

وكان «يليان» هو المسؤول المباشر عن توفير هذه السفن للمسلمين بعد أن صار يعمل في خدمتهم طبقاً للمعاهدة التي أبرمها مع الفاتح «عقبة بن نافع».

يقول ابن عذاري إن «يليان» كان يحمل أصحاب طارق بن زياد في مراكب التجارة التي تذهب إلى الأندلس، ولا يشعر أهل الأندلس بذلك، ويظنون أن هذه المراكب تذهب للتجارة، فحمل الناس أفواجاً أفواجاً إلى الأندلس.

ومع وصول القوات الإسلامية إلى أراضي الأندلس. بدأت الاشتباكات المتلاحقة بين المسلمين والإسبان، والتي انتهت بما يسمّى «بأمّ المعارك» بين الفاتحين وبين قوات القوط بقيادة «الذريق»[1]

بدأت هذه المعركة نهار الأحد ٢٩ رمضان سنة ٩٢ للهجرة. واستمرت دامية حوالي ثمانية أيام انتهت بانتصار ساحق للفاتحين وعلى رأسهم القائد طارق بن زياد، وبهزيمة ساحقة وذلٍّ للقوطيين وعلى رأسهم قائدهم «الذريق» الذي تراجعت صفوفه القهقرى والفاتحون يلاحقون فلولهم لمدة ثلاثة أيام.

ويواصل ابن زياد مسيره نحو مدن الأندلس، فيتّجه إلى «طليطلة»[2] ويوجّه مغيثاً الرومي إلى «قرطبة».

ولكن حدود الفتح لا تنتهي عند هذا الحدّ، إذ ظلت الحرب مستعرةً إلى أن استكمل موسى بن نصير جهود طارق بن زياد، وبعدهما عبد العزيز بن موسى الذي استكمل الفتح العربي للأندلس حين بسط نفوذ المسلمين على الجانب الغربي من الأندلس[3]

---

(١) صاحب الأندلس.

(٢) طليطلة: عاصمة القوطيين.

(٣) ما يعرف بالبرتغال حالياً.

إن الفتح العربي للأندلس لم يكن وليد صدفةٍ أو معركة تمّت بين ليلة وضحاها إنما يعود للعقيدة والعزيمة والإصرار والشجاعة من جهة المسلمين وعدة عوامل من أهل الأندلس شاركت في انتصار المسلمين، ومنها:

ـ عدم كفاءة الجيش الإسباني لقتال جيش الفاتحين. إذ أنهم لا يملكون العقيدة أولاً ولا الولاء التام لقائدهم «لذريق».

ـ إنّ هزيمة «لذريق» كان مردّها إلى هذا العداء الواضح بينه وبين شعبه الذي استقبل الفاتحين دون أيّ مقاومة تذكر.

ـ إنّ الاضطهاد البشع الذي عانى منه الشعب الإسباني على يد حكّامه جعله يرى في الفتح الإسلامي مخرجاً من مستنقع الذل والفقر والاستبداد والتعصب الديني الأعمى الذي استعمله «لذريق» ضد الإسبان. إلّا أنّ نهاية الحكم العربي للأندلس كان نتيجة ضعف وتهاون واستئثار وتخاذل. فقد انقسمت الأندلس وتشرذمت إلى دويلاتٍ ضعيفة منعزلة عن بعضها البعض، وبالطبع فإنها لم تستطع الصمود أمام حركة الاسترداد المسيحي لأراضي شبه الجزيرة الإيبرية[1]

فقد سقطت «طليطلة» بعد خيانة من الأقربين قبل الأعداء. كما أن سياسة ممالاة العدو هي السياسة التي اتبعها وفضلها حكام الأندلس المسلمين.

وتجلّت هذه الخيانة وعدم الحس بالمسؤولية حين قام ابن عباد حاكم «إشبيلية» بمساعدة الملك الإسباني «الفونس» في القضاء على أخيه حاكم «طليطلة».

وإذا بحثنا عن أسباب التشرذم لوجدنا أن السبب هو الخروج عن السبب الذي من أجله فتحت الأندلس والتسابق على الهيمنة والحفاظ على المصالح الذاتية لا على المصالح العامة. فالفرقة والصراعات والدسائس سادت بين قاعات البيت الحاكم، في الوقت الذي حقّقت فيه الإسبان وحدة سياسية تربطها

---

(١) يرى المؤرخون الإسبان أن هذه الحركة تبدأ من معركة «كوفادونجا» أو «مغارة دونجا» وفيها انهزم ابن علقمي اللخمي شر هزيمة من قوات «بلايه» وانتهت بتأسيس أولى الإمارات المسيحية في شمال الأندلس.

المودة والإخلاص والدم حيث تم زواج «فرديناند الخامس» ملك أرجوان والملكة «إيزابيلا» ملكة قشتالة[١]

كل ذلك تزامن مع وجود ملك ضعيف حائر على بلاد الأندلس ألا وهو «أبو عبد اللّٰه الصغير» آخر حاكم عربي على الأندلس، على رغم صموده في وجه الكاثوليكيين لأكثر من عامين ونصف فقد سقطت عروسة الأندلس «غرناطة». حيث إن التكاتف الذي أظهره الإسبان لاسترداد الأندلس رافقه ضعف وتردد من قبل الحكام المسلمين في ذلك الوقت.

وفي الختام لا بدّ من ذكر ما قالته أم الملك عبد اللّٰه الصغير له: «ابك كالنساء مُلكاً لم تحفظه حفظ الرجال».

---

(١) يقول المؤرخون الإسبان إن الزوجين إيزابيلا وفرديناند الخامس كانا يحلمان بقضاء شهر عسلهما في قصر الحمراء.

# أسطورة إحراق
# طارق بن زياد لأسطول المسلمين

وفي هذه القصة الكثير من العبر والحكم، ودلالة على شخصية القائد الفذّ ـ طارق بن زياد ـ.

فقد ذكرت الروايات التاريخية أن طارقاً لما عبر الضفة الثانية للشاطئ الإسباني، لاحظ التململ والتردد في بعض جنوده، وخاف على جيشه من التضعضع والترّدد، ولكي يقطع على جنوده أيّ تفكير في التراجع أو الارتداد، قام وخطب فيهم خطبته الشهيرة التي يقول في مطلعها: أيها النّاس أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو من أمامكم وليس لكم واللّه إلّا الصبر والصدق، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيعُ من الأيتام في مأدبة اللئام.

أما الروايات الإسلامية فإنها لم تُشر إلى حادثة حرق السفن من قبل طارق بن زياد ـ بل تزيد إلى أنّ هذه الحادثة لم ترد ـ ولم نجد هذه الحادثة إلّا في ثلاثة مراجع هي:

ـ كتاب الاكتفاء لابن الكردبوس.

ـ كتاب نزهة المشتاق لابن الإدريسي.

ـ كتاب الروض المعطار للحميري.

أما ابن الكردبوس فيذكر في كتابه ـ الاكتفاء ـ ص٤٦ ـ ٤٧: ثمّ رحل طارق إلى قرطبة بعد أن أحرق المراكب وقال لأصحابه: «قاتلوا أو موتوا»[١]

أما الإدريسي فيذكر ذلك في كتابه ويقول:

«وإنما سُمّي بجبل طارق لأن طارق بن عبد اللّه بن ونمو الزناتي، لما

---

(١) الاكتفاء لابن الكردبوس ص٤٦ ـ ٤٧.

جاز بمن معه من البربر، وتحصنوا بهذا الجبل، أحسّ في نفسه أن العرب لا تثق به، فأراد أن يزيح ذلك عنه، فأمر بإحراق المراكب التي جاز بها فتبرأ بذلك عمّا اتهم به»[١]

أما الحميري فإنه يذكر الرواية كما ذكرها ابن الإدريسي مع اختلاف يكاد يكون بسيطاً لكنه في غاية الأهمية إذ يقول: «وإنما سمّي بجبل طارق لأن طارق بن عبد الله لما جاز بالبربر الذين معه، تحصّن بهذا الجبل، وقدّر أن العرب لا ينزلونه، فأراد أن ينفي عنه التهمة[٢] فأمر بإحراق المراكب التي جاز فيها، فتبرأ بذلك مما اتهم به»[٣]

ومن هذه الروايات الثلاث نفهم الاختلاف الواضح بين الرؤية الحقيقية، لحادثة إحراق المراكب، فابن الكردبوس يقول إن هدف طارق بن زياد من إحراق المراكب هو شحذ عزيمة جنوده وشدّ أزرهم في المعركة إذ أنهم يعلمون أن لا سبيل للفرار، فإما النصر أو الموت والأسر المهين، وهذا يدل على رؤية بعيدة للنصر عند القائد طارق بن زياد.

أما ما يفهم من رواية الإدريسي والحميري، أنّ الثقة في هذه المرحلة بدأت تهتز بين العرب وطارق بن زياد حيث أحسّ هذا القائد أن العرب لا تثق به، وأنّ خلافاً وقع بين طارق بن زياد وبين أركان جيشه العرب الذين يعملون تحت قيادته، فعمد إلى إغراق مراكبه ليحول بينهم وبين الانسحاب إلى المغرب، وبذلك ينفي عنه التهم التي قد يوجهونها ضدّه عند القائد الأعلى موسى بن نصير.

ومهما كان السبب وراء حرق طارق بن زياد لمراكبه فإن الجمهور الأغلب من المحدثين يميلون إلى إنكار هذه الحادثة من أساسها، غير أن هناك من يثبت ويؤكد وقوع هذه الحادثة التاريخية ويستشهدون بوقوع حوادث عديدة وردت في كتب التاريخ قديماً وحديثاً تشير إلى وقوع أحداثاً مماثلة.

ومن الأمثلة القديمة التي يستدل بها المثبتون لهذه القصة:

(١) نزهة المشتاق لابن الإدريسي ص٣٦.
(٢) في الأصل: أن ينفي عن نفسه التهمة.
(٣) الروض المعطار للحميري ص٧٥.

موقف أرياط الحبشي الذي عبر البحر إلى اليمن، حيث أحرق سفنه وألقى على جنده خطبة تشبه خطبة طارق بن زياد في جنوده[١]

وموقف القائد الفارسي وهرز الذي بعثه كسرى مع سيف بن ذي يزن إلى اليمن لتحريرها من الأحباش، وقد أحرق سفنه أيضاً وقال لجنوده كلاماً مشابهاً لكلام طارق بن زياد[٢]

ولعلنا نجد أن القصة الأقرب لقصة القائد ابن زياد هي قصة أسد بن الفرات[٣] ـ توفي ٢١٢هـ ـ وقد رواها أبو بكر المالكي[٤] حيث يقول أن فاتح جزيرة صقلية المشهور أسد بن الفرات أراد هو الآخر حرق مراكبه حينما ثار عليه بعض جنوده وقواده، وطالبوه بالانسحاب من الجزيرة والعودة إلى القيروان[٥]

ونجد قصة مماثلة لقصة طارق بن زياد في التاريخ الإسباني بطلها القائد أرنان كورتس الذي فتح المكسيك سنة ١٥١٩م. فيروى أن هذا القائد الإسباني اكتشف مؤامرة دبّرها جماعة من قواده للهرب بالسفن إلى إسبانيا، عندئذٍ أمر «كورتس» بإنزال الجنود والأمتعة إلى الشاطئ الأمريكي، ثمّ دسّ من حرق السفن وأغرقها ليلاً كي يحول دون تنفيذ هذه المؤامرة[٦]

أما النّافين لهذه القصة فيعتمدون على أدلة منها:

١ ـ أن طارق بن زياد لا يمكن أن يقطع وسيلة النجاة للعودة، خاصة وأنه في أرض مجهولة لا يعلم مصيره ومصير جنوده.

٢ ـ أن طارق بن زياد أرسل إلى موسى بن نصير يطلب منه الإمدادات بعد أن عبر وتواجه مع جيش القوط هناك، فأرسل له موسى بن نصير خمسة آلاف

(١) ويعتبر الكثيرون أن طارقاً تمثل بأرياط الحبشي وغيره في قصة حرق المراكب وإلقاء الخطبة التي تحث على القتال.

(٢) للمزيد من المعلومات راجع الطبري ٢/١١٩.

(٣) هو أسد بن الفرات بن سنان من حرّان بديار بكر.

(٤) هو الوليد بن أبي بكر بن خلد بن أبي زياد العمري.

(٥) راجع كتاب: رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وأفريقية.

(٦) كتاب في تاريخ المغرب والأندلس ـ أحمد مختار العبادي.

مقاتل، والسؤال هناك كيف استطاعَ موسى أن ينقل كلّ هذه الأعداد إذا كان طارق قد أحرق السفن؟!

٣ ـ ويمكن أن يقال أيضاً: هل باستطاعة المصانع الإسلامية في ذلك الوقت أن توفر سفناً تنقل خمسة آلاف مقاتل في تلك الفترة الزمنية الوجيزة، إذا كان طارق قد أحرق السفن بالفعل؟.

٤ ـ ويقول بعضهم ممن ينفي حادثة إحراق المراكب: كيف يمكن لطارق بن زياد أن يتصرف بأموال الدولة على هواه دون وازع أو رادع؟ بل يجب عليه أن يستأذن الخليفة في هذا الصنيع ولا يتصرف من تلقاء نفسه.

٥ ـ إن طارقاً وجيشه يقاتلون من أجل عقيدة، لا من أجل السلطة وحب التملك والغزو، لذا، فإنهم من ساعة عبورهم أتوا مجاهدين مستعدين للشهادة، وطارق بن زياد مدرك ومتأكد من هذه المعاني.

ونحن إذا نظرنا في أدلة المثبتين لحادثة إحراق المراكب وأدلة النافين لها تتّضحُ لنا أدلة كثيرة، أبرزها ما ينطبق على قاعدة أنّه ليس كلّ ما هو مشهورٌ صحيح، بمعنى أنه ليست كل تلك القصص التي استدل بها الفريق الأول صحيحة.

هذا وإن سلمنا جدلاً أن طارق بن زياد قام فعلاً بإحراق المراكب فهذا لا يعني على الإطلاق أن طارقاً قام بهذا العمل تيمّناً بمن سبقه في هكذا عمل. وإنما قد تكون فعلته هذه مرتبطة بالوقت والزمن والظروف الاضطرارية التي مرّ بها هذا القائد في ذلك الوقت بالتحديد، دون الحاجة إلى تقليد من سبقه، لا سيما أن خطبته المشهورة لا تخلو من علاقة وارتباط وثيق بواقعة حرق المراكب.

أما بالنظر إلى تعليل المنكرين لقصة إحراق المراكب فإننا قد نجدها صحيحة وتتماشى مع خطط القائد الفاتح، الذي يدرك تماماً مدى خطورة إقدامه على فعل كهذا.

كما أن دوافع المعاني الإسلامية، والهدف السامي الذي جاء الجيش من أجله هو أقوى من أي دافع آخر يتسبب بحرق مراكب الجيش والاستغناء عن آخر وسيلة نجاة في حالة لم يتمكن الجيش من تحقيق النصر، وما كان

المسلمون ـ جنوداً وقوّاداً ـ ليتخلفوا عن خوض معركة أو تقديم النفائس وأوّلها الأرواح في سبيل إعلاء كلمة الحق. كما أنّ معظم المصادر الأندلسية لا تشير إلى حادثة إحراق السفن التي ـ كما ذكرنا ـ لا تكاد تخلو من علاقة وارتباط بقصة الخطبة التي ألقاها القائد طارق بن زياد على جنده وقوّاد جيشه.

وبالحديث عن الخطبة التي ألقاها طارق بن زياد على جنده فهي قد وردت في عدة مراجع مثل:

- تاريخ عبد الملك بن حبيب ص٢٢٢.
- كتاب نفح الطيب للمقري ١/ ٢٢٥.
- كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة ٢/ ١١٧.
- كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان ٤/ ٤٠٤.

أما عامة المراجع الإسلامية فإنها تمرّ عليها بالصمت التام باستثناء عبارة ابن الكردبوس التي ذكرت مطلع الخطبة ولخصتها بكلمتين فقط: «قاتلوا أو موتوا».

أمّا بعض المؤرخين المحدثين فقد شككوا في نسبة هذه الخطبة إلى طارق بن زياد على اعتبار أنها قطعة أدبية فريدة لا يقدر طارق على ارتجالها وصياغتها بحلتها الموجودة؛ كما أن جنوده لا يقوون على إدراك معانيها وفهمها كونهم جميعاً ـ القائد وجنوده ـ من البربر.

غير أن هذا التعليل، وإن بدا ـ إلى حدٍّ ما ـ معقولاً ومنطقيّاً، إلا أنه لا يمنع من أن طارقاً قد خطب في جنده على غرار القادة الفاتحين في مختلف العصور وإن كان بعض المحدثين يعتقد أن هذه الخطبة لم تكن باللغة العربية، وإنما كانت باللسان البربري كما يسميه المؤرخون القدامى. ثم بعد ذلك نقل الكتّاب العرب هذه الخطبة إلى اللغة العربية فتناولوها بكثير من الخيال والإضافة والتجميل والتغيير على عادتهم، وألبسوها حلةً جديدة وجميلة من حلل اللغة العربية.

ومن هذا المنطلق، نرى أنه ليس بعيداً أبداً أن يكون طارق بن زياد قد

خطب في جنده بلسانهم إذ أنّه من غير المعقول أن يخاطبهم ـ وهم في ساحة الوغى وفي مقام الجد ـ بلغة لم يتعلموها أو على الأقل لم يتقنوا معانيها ـ والخطبة كما ذكرنا قطعةٌ أدبيةٌ فريدةٌ ـ فكان استعمال اللسان البربري في هذا الموقف ضرورة لإحراز التأثير المطلوب والفائدة المرجوة لبث الحماسة في نفوس المقاتلين.

# أخبار طارق بن زياد في التاريخ

في سنة (٧١١م/ ٩٢هـ) اجتاز القائد طارق بن زياد على رأس ١٢ ألف جندي من العرب والبربر مضيق سبتة متجهاً نحو الأندلس من أجل نشر الديانة الإسلامية بأوروبا. وحينما وطأت قدماه أرض الأندلس حاصرته الجيوش القوطية الأندلسية، ولأجل رفع معنويات الجنود الفاتحة ألقى طارق بن زياد خطبته المشهورة على جيشه ألهبت فيهم وأثارت في نفوسهم الحماس في القتال، وساعدتهم في تغلبهم على الجيوش القوطية التي كانت تحاصرهم. بعدها تقدم طارق بن زياد نحو الشمال، وفي منطقة شدونة بوادي «لكة» انتصر على الملك القوطي الأندلسي (Rodrigo) بعد معارك قوية وطاحنة، دامت حوالي أسبوعاً. ثم بعدها توغل طارق في عمق الأندلس، غازياً ومستولياً على عدة أماكن، كما هو الشأن بالنسبة لمنطقة كورتي تاكزا ومورور، وفي مدينة استجة أسس قاعدة عسكرية، ومن هناك كان يرسل جيشه إلى مختلف مناطق الأندلس بعد أن قسم جيشه إلى سرايا حربية، فسرية أولى أرسلها إلى مدينة قرطبة، وسرية حربية ثانية في اتجاه رية وإلبيرة بقيادة مغيث الرومي، وسرية حربية ثالثة في اتجاه جيان وتدمير، وسارت بقية الجيش بقيادة طارق بن زياد نحو «طليطلة» بعد أن تم الاستيلاء على المناطق المذكورة، وترك فيها حاميات عسكرية لحمايتها وإدارتها. وبفضل حنكة طارق بن زياد وخططه الحربية المدروسة المتسمة بالسرعة في التنفيذ والهجوم، من أجل تجنب أي تجمع جديد للجيوش الأندلسية، استطاع طارق أن يستولي على مدينة طليطلة، ومدن أندلسية أخرى.

وعن فروسية طارق يقول إبراهيم بيضون «طارق دائماً رجل المهمات الصعبة منذ أن عرفته الجبهة الإفريقية مقاتلاً عنيداً وقائداً بارزاً»[1] ويقول عنه

(١) بيضون إبراهيم، الدولة العربية في إسبانيا، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٨، ص: ٦٨.

الحجي أيضاً: كان طارق عسكرياً ناجحاً وقائداً ممتازاً، مخلصاً للإسلام متحمساً لنشره[١] بعد تمكن طارق بن زياد من إخضاع مدينة طليطلة، أصبحت مركزه العسكري، ومن هناك أرسل جيشه إلى وادي الحجارة وأمايا وإشبيلية، وهذه الأخيرة، فتحت صلحاً دون إراقة الدماء في شتاء سنة ٧١١م.

كان طارق بن زياد يكتب إلى موسى بن نصير بانتصاراته، وما يفيد ذلك، يقول الحميري: «فركب طارق البحر إلى الأندلس من جهة مجاز الخضراء منتهزاً فرصة أمكنته، فدخلها وأمعن فيها، واستظهر على العدو بها، وكتب إلى موسى بن نصير بغلبته»[٢] وقد كان موسى بن نصير ينتظر بفارغ الصبر خبر الغزو، لينقض على مكاسبه، وهكذا بعد عام من الغزو في سنة ٧١٢م وصلت أولى الموجات العربية إلى الأندلس بقيادة موسى بن نصير على رأس ثمانية آلاف مقاتل، وما إن حلت هذه الجيوش بأرض الأندلس، حتى عملت على احتلال الأراضي التي فتحها الأمازيغ، والانقضاض على مكاسبه.

ويورد دوزي في هذا الصدد: «إن النصر قد تم في الأندلس على يد البربر المقيمين في شبه الجزيرة ولم يفعل موسى والعرب غير جني ثمار النصر»[٣]، ويضيف دوزي فيقول: «لقد كانوا الفاتحين الحقيقيين للبلاد، أما موسى وأصحابه العرب فلم يعملوا أي شيء غير جني ثمار انتصار طارق والاثنا عشر ألف بربري على جيش القوط»[٤]



وعن سبايا موسى بن نصير، يورد أحمد بن خالد الناصري: «قال أبو شعيب الصدفي: لم يسمع في الإسلام بمثل سبايا بن نصير. ونقل الكاتب أبو إسحاق بن القاسم القروي المعروف بابن الرقيق أن موسى بن نصير لما فتح سقوماً كتب إلى الوليد بن عبد الملك أنه صار لك من السبي مائة ألف رأس، فكتب إليه الوليد: ويحك إني أظنها من بعض كذباتك، فإن كنت صادقاً فهذا محشر الأمة»[٥]

---

(١) الحجي، التاريخ الأندلسي، جامعة بغداد، ١٩٧٦، ص: ٤٧.

(٢) الحميري، الروض المعطار، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٥، ص: ٣.

(٣) دوزي، تاريخ إسبانيا الإسلامية، الترجمة العربية، ج١، ص: ١٥٦.

(٤) Histoire des musulmans d'Espagne, maison neuve, Paris, 1956, P: 160, (Dozy) R.

(٥) أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا، ج١، دار الكتاب، ١٩٥٤، ص: ٩٦.

عند وصول موسى بن نصير إلى مدينة طليطلة، المقر العسكري لطارق بن زياد، نشب خلاف وشجار بين طارق بن زياد وموسى بن نصير. وعن أهم أسباب الخلاف، أن موسى بن نصير قبل أن يصل إلى الأندلس كتب إلى طارق بن زياد يطلب منه وقف سير الغزوات، وهذه المطالب تعكس نوايا غير حسنة، فالقائد المشرقي كان يخشى من شهرة طارق عند الخليفة، ومكاسب الغزو، وهذا ما نفهمه من كلام «الرقيق»: «وبلغ موسى أن طارق بن زياد فتح الأندلس ودخلها، فخاف أن يحظى بذلك عند الخليفة، فغضب غضباً شديداً»[١] وفي نفس السياق يورد ابن كثير أن موسى كتب إلى طارق يتوعده لكونه دخل بغير أمره، ويأمره أن لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به[٢] وعند اقتراب عودة موسى بن نصير إلى المشرق عمل على وضع ابنه عبد العزيز حاكماً على الأندلس، «... فاستأثر العرب بالأندلس الجميلة الخصبة، وأقصوا البربر إلى الشمال في المناطق القاحلة»[٣]

ويورد ليفي بروفنسال أيضاً أن: «البربر استقروا في المناطق الجبلية لأن العرب استحوذوا على الأراضي الخصبة دونهم، وطردوهم نحو الجبال والهضاب الجافة[٤] في مقابل ذلك، كان طارق بن زياد يواصل إتمام طريق مشواره في رفع راية الإسلام في بلاد الأندلس، وقاد جيشه في غزواته إلى الثغر الأعلى بمنطقة سرقسطة وبرشلونة وأربونة، وبعض مناطق الجنوب بماردة وولبة وإكشبونة ولشبونة وطركونة، وفي منطقة جليقية كانت الجيوش ترد وتهاجم الجيوش المعادية التي تعسكر بجبال جليقية، وبها توقفت غزوات طارق بن زياد عقب استدعائه من قبل موسى بن نصير من الشام بدمشق العاصمة الأموية، التي كانت فيها نهاية طارق بن زياد على يد العرب.

(١) الرقيق، تاريخ إفريقيا والمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٠، ص: ٤٤.
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٧، ص: ٨٣.
(٣) دوزي، نفسه.
(٤) Lévi Provençal (E), Histoire des musulmans d'Espagne, maison neuve, T. I, P: 88 1950.

# طارق بن زياد
# والطريق إلى الأندلس

ويقول أحمد تمام: أتم المسلمون فتح بلاد المغرب، واستقرت الأوضاع بها بعد جهاد طويل من قبل الفاتحين، حتى كتب الله التمكين للمسلمين على يد موسى بن نصير، وأقبل سكان المغرب على الإسلام أفواجاً يذوقون حلاوته وينعمون بعدله، ولم يبق من شمال المغرب سوى «سبتة» التي استطاعت لمناعتها ويقظة حاكمها الكونت يوليان أن تقف أمام طموحات الفاتحين المسلمين.

وفي الوقت الذي كان يفكر فيه موسى بن نصير بمد الفتح إلى الأندلس وعبور المضيق إليها جاءته رسالة من الكونت يوليان يعرض فيها تسليم سبتة، ويغريه بفتح إسبانيا ويهون عليه الأمر، وكانت العلاقة بين يوليان ولذريق ملك إسبانيا سيئة جداً، فعزز ذلك ما كان يستعد من أجله موسى بن نصير، ويشاور الخلافة الأموية في سبيل تحقيقه، ولم يكتف موسى بن نصير بالمراسلة، بل اجتمع هو ويوليان في سفينة في عرض البحر للاتفاق والمفاوضة، وكان يوليان قد عرض على موسى بن نصير تقديم سفنه لنقل المسلمين إلى إسبانيا، ومعاونته بالجند والإرشاد، بالإضافة إلى تسليم «سبتة»، وباقي معاقلها إلى المسلمين.

وكان العرض مغرياً يدعو إلى الإقدام عليه، لكن موسى بن نصير لم يكن يملك الموافقة النهائية دون الرجوع إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك، فكتب إليه بأمر هذا العرض، فأجابه بأن يتأنى ويتمهل وأن يختبر الأمر بحملة صغيرة توقفه على حقيقة الأمر، قبل أن يخوض أهوال البحر.

## حملة طريف

واستجابة لأمر الخليفة بدأ موسى بن نصير في تجهيز حملة صغيرة،

لعبور البحر إلى إسبانيا، وكان قوامها خمسمائة جندي يقودهم قائد من البربر يدعى «طريف بن مالك»، لاستكشاف الأمر واستجلاء أرض الإسبان، وقدم يوليان لهذه الحملة أربع سفن أقلتهم إلى إسبانيا، فعبرت البحر ونزلت هناك في منطقة سميت بجزيرة طريف، نسبة إلى قائد الحملة، وكان ذلك في (رمضان ٩١هـ = يوليو ٧١٠م) وجاست الحملة خلال الجزيرة الخضراء، وغنمت كثيراً ودرست أحوال إسبانيا، ثم قفلت راجعة إلى المغرب، وقدم قائدها إلى موسى بن نصير نتائج حملته.

## حملة طارق

بعد مرور أقل من عام من عودة حملة طريف بن الأندلس كان موسى بن نصير قد استعد للأمر، وحشد جنوده، وجهز سفنه، واختار قائداً عظيماً لهذه المهمة الجليلة هو طارق بن زياد والي طنجة، وهو من أصل بربري دخل آباؤه الإسلام فنشأ مسلماً صالحاً، وتقدمت به مواهبه العسكرية إلى الصدارة، وهيأت له ملكاته أن يكون موضع ثقة الفاتح الكبير موسى بن نصير، فولاه قيادة حملته الجديدة على الأندلس.

خرج طارق بن زياد في سبعة آلاف جندي معظمهم من البربر المسلمين، وعبر مضيق البحر المتوسط إلى إسبانيا، وتجمع الجيش الإسلامي عند جبل صخري عرف فيما بعد باسم جبل طارق في (٥ من رجب ٩٢هـ = ٢٧ من إبريل ٧١١م).

سار الجيش الإسلامي مخترقاً المنطقة المجاورة غرباً بمعاونة يوليان وزحف على ولاية الجزيرة الخضراء؛ فاحتل قلاعها، وترامت أنباء هذا الفتح إلى أسماع «لذريق»، وكان مشغولاً بمحاربة بعض الثائرين عليه في الشمال، فترك قتالهم وهرع إلى «طليطلة» عاصمته، واستعد لمواجهة هذا الخطر الداهم على عرشه، وبعث بأحد قادته لوقف الجيش الإسلامي، لكنه أخفق في مهمته.

وكان طارق بن زياد قد صعد بجيشه شمالاً صوب «طليطلة»، وعسكرت قواته في منطقة واسعة يحدها من المشرق نهر وادي لكة، ومن الغرب نهر وادي البارباتي، وفي الوقت نفسه أكمل لذريق استعداداته، وجمع جيشاً هائلاً بلغ مائة ألف وأحسن تسليحه، وسار إلى الجنوب للقاء المسلمين، وهو واثق

إلى النصر مطمئن إلى عدده وعتاده، ولما وقف طارق على خبر هذا الجيش كتب إلى موسى نصير يخبره بالأمر، ويطلب منه المدد؛ فوافاه على عجل بخمسة آلاف مقاتل من خيرة الرجال، فبلغ المسلمون بذلك اثني عشر ألفاً.

## اللقاء المرتقب

وكان لا بد من الصدام، فالتقى الفريقان جنوبي بحيرة خندة المتصلة بنهر بارباتي[١] الذي يصب في المحيط الأطلسي بالقرب من مدينة «شذونة»، وكان لقاء عاصفاً ابتدأ في (٢٨ من رمضان ٩٢هـ = ١٨ من يوليو ٧١١م) وظل مشتعلاً ثمانية أيام، أبلى المسلمون خلالها بلاء حسناً، وثبتوا في أرض المعركة كالجبال الراسيات، ولم ترهبهم القوى النصرانية، ولا حشودهم الضخمة، واستعاضوا عن قلة عددهم ـ إذا ما قورنوا بضخامة جيش عدوهم ـ بحسن الإعداد والتنظيم، وبراعة الخطط والتنفيذ، وبشجاعة الأفئدة والقلوب، وبقوة الإيمان واليقين، والرغبة في الموت والشهادة.

نجح المسلمون في الصمود والثبات ثمانية أيام عصيبة، حتى مالت كفة النصر إلى صالحهم، وتحول جيش لذريق العرمرم إلى غثاء كغثاء السيل، لا خير فيه ولا غناء، فقد كان على ضخامته متفرق الكلمة موزع الأهواء، تمزق صفوفه الخيانة؛ ولذلك لم يكن عجيباً أن يحقق المسلمون النصر على ضآلة عددهم؛ لأنهم التمسوا أسباب النصر وعوامل الفوز، فتحقق لهم في اليوم الثامن بعد جهاد شاق، وفرّ لذريق آخر ملوك القوط عقب الموقعة، ولم يُعثر له على أثر، ويبدو أنه فقد حياته في المعركة التي فقد فيها ملكه، أو مات غريقاً في أحد الأنهار عند فراره.

## نتائج النصر

بعد هذا النصر تعقب طارق فلول الجيش المنهزم الذي لاذ بالفرار، وسار الجيش فاتحاً بقية البلاد، ولم يلق مقاومة عنيفة في مسيرته نحو الشمال، وفي الطريق إلى طليطلة بعث طارق بحملات صغيرة لفتح المدن، فأرسل مغيثاً الرومي إلى قرطبة في سبعمائة فارس، فاقتحم أسوارها الحصينة واستولى عليها

---

(١) ويعرف بنهر «لكة».

دون مشقة، وأرسل حملات أخرى إلى غرناطة والبيرة ومالقة، فتمكنت من فتحها.

وسار طارق في بقية الجيش إلى طليطلة مخترقاً هضاب الأندلس، وكانت تبعد عن ميدان المعركة بما يزيد عن ستمائة كيلومتر، فلما وصلها كان أهلها من القوط قد فروا منها نحو الشمال بأموالهم، ولم يبق سوى قليل من السكان، فاستولى طارق عليها، وأبقى على من ظل بها من أهلها وترك لأهلها كنائسهم، وجعل لأحبارهم ورهبانهم حرية إقامة شعائرهم، وتابع طارق زحفه شمالاً فاخترق «قشتالة» ثم «ليون»، وواصل سيره حتى أشرف على ثغر «خيخون» الواقع على خليج بسكونية، ولما عاد إلى طليطلة تلقى أوامر من موسى بن نصير بوقف الفتح حتى يأتي إليه بقوات كبيرة ليكمل معه الفتح.

## عبور ابن نصير إلى الأندلس

كان موسى بن نصير يتابع سير الجيش الإسلامي في الأندلس، حتى إذا أدرك أنه في حاجة إلى مدد بعد أن استشهد منه في المعارك ما يقرب من نصفه، ألزم طارقاً بالتوقف؛ حرصاً على المسلمين من مغبة التوغل في أراضي مجهولة، وحتى لا يكون بعيداً عن مراكز الإمداد في المغرب، ثم عبر هو في عشرة آلاف من العرب وثمانية آلاف من البربر إلى الجزيرة الخضراء في (رمضان ٩٣هـ = يونيه ٧١٢م)، وسار بجنوده في غير الطريق الذي سلكه طارق، ليكون له شرف فتح بلاد جديدة، فاستولى على «شذونة»، ثم اتجه إلى «قرمونة» وهي يومئذ من أمنع معاقل الأندلس ففتحها، ثم قصد «إشبيلية» و«ماردة» فسقطتا في يده، واتجه بعد ذلك على مدينة طليطلة حيث التقى بطارق بن زياد في سنة (٩٤هـ = ٧١٣م).

وبعد أن استراح القائدان قليلاً في طليطلة عاودا الفتح مرة ثانية، وزحفا نحو الشمال الشرقي، واخترقا ولاية أراجون، وافتتحا سرقطة وطركونة وبرشلونة وغيرها من المدن، ثم افترق الفاتحان، فسار طارق ناحية الغرب، واتجه موسى شمالاً، وبينما هما على هذا الحال من الفتح والتوغل، وصلتهما رسالة من الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي، يطلب عودتهما إلى دمشق، فتوقف الفتح عند النقطة التي انتهيا إليها، وعاد الفاتحان إلى دمشق، تاركين

المسلمين في الأندلس تحت قيادة عبد العزيز بن موسى بن نصير، الذي شارك أيضاً في الفتح، بضم منطقة الساحل الواقعة بين مالقة وبلنسبة، وأخمد الثورة في إشبيلية وباجة، وأبدى في معاملة البلاد المفتوحة كثيراً من الرفق والتسامح.

وبدأت الأندلس، منذ أن افتتحها طارق، تاريخها الإسلامي، وأخذت في التحول إلى الدين الإسلامي واللغة العربية، وظلت وطناً للمسلمين طيلة ثمانية قرون، كانت خلالها مشعلاً للحضارة ومركزاً للعلم والثقافة، حتى سقطت غرناطة آخر معاقلها في يدي الإسبان المسيحيين سنة (٨٩٧هـ = ١٤٩٢م).

# قرطبة... أمارة طارق بن زياد

قرطبة: مدينة أندلسية تقع في الغرب الإسباني، تتفرع سفوح جبالها من سلسلة جبال سيرا مورينا، الممتدة شمالي المدينة. وتمتد قرطبة على الضفة اليمنى لنهر الوادي الكبير، الذي ينحني طفيفاً في مجراه نحو الغرب مؤلفاً أهم طريق طبيعي في إسبانيا الجنوبية. وقرطبة مدينة إيبيرية قديمة البناء، كان اسمها (إيبيري بحت) وترجم بالعربية إلى قرطبة.

تأسست قرطبة في العصر الروماني عام ١٥٢ ق.م على نهر الوادي الكبير. وذاعت شهرتها منذ الصراع بين قرطاجة وروما، عندما اصطحب هنيبعل معه نفراً من أهل قرطبة في حملته على روما. وفي عام ٢٠٦ ق.م استولى عليها القنصل الروماني لوثيو مارثيو، ثم اتخذها الرومان منذ عام ١٦٩ق.م عاصمة لإسبانيا السفلى. واتسع نطاقها في عهد الحاكم الروماني ماركوس كلوديوس مرثيلو الذي زينها بالأبنية الرائعة والأسوار المنيعة التي اشتهرت بها العمارة الحربية الرومانية. وهكذا دخلت قرطبة في سلك الإمبراطورية الرومانية وعمرت وازدحمت بالأسر الرومانية النبيلة. وفي القرن الأول الميلادي، استطاع قائد الإمبراطور أغسطس قيصر أن يستولي عليها بعد موقعة «مندا» عام ٤٥م. ثم أصبحت عاصمة إقليم باطقة بعد أن قسّم الإمبراطور أغسطس قيصر إسبانيا السفلى إلى إقليمي لوزيتانية وباطقة. ثم أصبحت بعد ذلك واحدة من أربعة مراكز قضائية في إسبانيا الجنوبية بجانب قادس وإشبيلية وإستجة.

وعندما غزا الفندال والسواف والألان شبه جزيرة إيبيريا عام ٤٠٩م، استولى الفندال على إقليم باطقة، واستولوا على إشبيلية، وجعلوها عاصمة الإقليم. أما قرطبة فقد ظلت خاضعة للبيزنطيين حتى نجح ملك القوط الغربيين ليوفخلدو أخيراً في الاستيلاء عليها عام ٥٦٨م، وأقام بها أسقفية. ثم أخذت

قرطبة تفقد شيئاً فشيئاً أهميتها أمام طليطلة، التي تفوقت عليها منذ أواخر القر
السابع الميلادي. وفي عام ٩٣هـ/ ٧١١م فتحت قرطبة أبوابها لجيوش
المسلمين بقيادة طارق بن زياد. وكان الفتح الإسلامي للمدينة أمراً هي
ميسوراً، حيث بعث طارق بن زياد قائده مغيث الرومي إلى قرطبة في سبعما
فارس، فأقبلوا نحو المدينة ليلاً يسترهم الظلام ـ وقد أغفل حرسها حراس
سورها ـ ونجح بعض رجال مغيث في ارتقاء ممشى السور، ووثبوا داخ
المدينة، وفاجأوا حراس بابها الجنوبي، فقتلوا منهم نفراً وفتحوا الباب
فتدفقت منه جيوش المسلمين، وفتحوا المدينة. وأصبحت قرطبة، بعد فت
المسلمين لها، حاضرة إسبانيا الإسلامية، واستعادت مكانتها القديمة الت
سلبتها إياها طليطلة. ومنذ عهد أيوب بن حبيب اللخمي، استقر بها ولا
الأندلس قرابة ثلاثة قرون حتى سقوط الخلافة الإسلامية في الأندلس. ولق
احتفظ أهلها من النصارى بحريتهم الدينية والمدنية مقابل ما كانوا يدفعونه م
جزية وفقاً لعهد المصالحة بينهم وبين المسلمين.

أما تاريخ قرطبة الإسلامية فيبدأ منذ عهد السمح بن مالك الخولاني الذ
ولي الأندلس عام ١٠٠هـ/ ٧١٩م، وهو الذي رفعها إلى مصاف الحواض
الكبرى. وكان السور الروماني الذي يحيط بقرطبة قد تهدم في بعض أجزائه
وتفتحت العاصمة للداخلين إليها والخارجين منها، فأعاد السمح بناء هذ
الأجزاء المتهدمة من اللبن، إذ أن المسلمين كانوا حديثي عهد الأندلس
يعرفون بعد مقاطع أحجارها.

وفي عام ١٣٩هـ/ ٧٥٦م بدأ نجم قرطبة بالصعود عندما أعلنها عب
الرحمن بن معاوية، المعروف بعبد الرحمن الداخل، عاصمة له بعد أن ساند
مسلمو الأندلس، ونادوا به حاكماً عليهم. وقد جعل عبد الرحمن قرطبة، مه
للعلم والثقافة ومركزاً للفنون والآداب في أوروبا كلها، فقام بدعوة الفقها
والعلماء، والفلاسفة والشعراء، فكانت أكثر مدن أوروبا سكاناً. وفي عه
الخليفة عبد الرحمن الناصر، وابنه الحكم المستنصر من بعده، وصلت قرط
مستوى من الرخاء والثراء لم تبلغه حاضرة أخرى من قبل. ولقد نافست قرط
في عهدهم بغداد عاصمة العباسيين، والقسطنطينية عاصمة الإمبراطور

البيزنطية، والقاهرة عاصمة الفاطميين. ووصل سفراء البلاط القرطبي إلى بلاد بعيدة مثل الهند والصين يحملون لملوكها من خليفة المسلمين في الغرب، رسائل مليئة بالمودة والصداقة والسلام، بينما تقاطر على البلاط الأموي مبعوثون ومندوبون عن أباطرة البيزنطيين وألمانيا وملوك كل من فرنسا وإيطاليا والممالك الأخرى في أوروبا وشمال إسبانيا، وزعماء البربر، وأمراء ورؤساء القبائل الإفريقية، حاملين معهم الهدايا الثمينة والغريبة. وكان الخليفة يستقبلهم وحوله حاشية من رجال سياسة وعلم وثقافة، فيقدم لهم من الكرم والجود ما يبهرهم، ويقوم على تسليتهم أفضل الشعراء والمغنين والموسيقيين، فيعود الضيوف إلى بلادهم وقد بهرهم ما شاهدوه في بلاد الخليفة المسلم.

وظلت قرطبة تنعم بهذا التفوق على سائر مدن إسبانيا زمناً، حتى سقطت الخلافة الأموية عام ٤٠٤هـ/ ١٠١٣م، حين ثار جند البربر على الخلافة ودمروا قصور الخلفاء فيها، وهدموا آثار المدينة، وسلبوا محاسنها.

ومنذ ذلك الحين انطفأت شعلة تفوقها، وتخلت عن مكانتها السامية لإشبيلية. ورغم هذه العواصف التي هزت كيانها استطاعت أن تحتفظ ببعض عظمتها وتفوقها في المجال الفني والصناعي والأدبي، حتى فتحها فرناندو الثالث في ٢٩ من يونيه سنة ١٢٣٦م/ ٦٣٣هـ. وأثار سقوط قرطبة في أيدي النصارى الحزن والأسى في نفوس المسلمين، وتحول مسجدها الجامع الكبير إلى كنيسة كبرى، وهجرها عدد كبير من سكانها المسلمين فاستبدل فرناندو بهم سكاناً آخرين من قشتالة وليون وقطالونية وغيرها من أقاليم إسبانيا النصرانية.

# قائمة الحكام الذين تولوا على الأندلس

| | الحاكم | فترة الحكم | | حياة الحاكم | | ملاحظات |
|---|---|---|---|---|---|---|
| | | من | حتى | من | حتى | |
| ولاة الأندلس من قبل الأمويين | | | | | | |
| | طارق بن زياد | 711 | 712 | | | أول من دخلها وأميراً للجيش |
| ١ | موسى بن نصير اللخمي | 712 | 713 | | | |
| ٢ | أبو عبد الرحمن بن موسى بن نصير | 713 | 714 | | | |
| ٣ | عبد العزيز بن موسى بن نصير | 714 | 716 | | 716 | ثم قتل |
| ٤ | أيوب بن حبيب اللخمي | 716 | 716 | | | |
| ٥ | الحر بن عبد الرحمن الثقفي | 716 | 719 | | | |
| ٦ | السمح بن مالك الخولاني | 719 | 721 | | 721 | فتح مقاطعة سبتمانية جنوب فرنسا ثم قتل بالقرب من طولوشة |
| ٧ | عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي | 721 | 721 | | 732 | |
| ٨ | عنبسة بن سحيم الكلبي | 721 | 726 | | 726 | محاولة التقدم إلى شمال فرنسا تفشل ومقتل عنبسة |
| ٩ | عذرة بن عبد الله الفهري | 726 | 726 | | | |
| ١٠ | يحيى بن سلمة الكلبي | 726 | 728 | | | |
| ١١ | حذيفة بن الأحوص القيسي | 728 | 728 | | | |
| ١٢ | عثمان بن أبي نسعة الخثعمي | 728 | 729 | | | |
| ١٣ | الهيثم بن عبيد الكناني | 729 | 730 | | | |
| ١٤ | محمد بن عبد الملك الأشجعي | 730 | 730 | | | |
| ١٥ - | عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي | 730 | 732 | | 732 | قتل عبد الرحمن في معركة بلاط الشهداء بالقرب من بواتييه، وكانت هذه آخر محاولة لفتح فرنسا. |

| | الحاكم | فترة الحكم | | حياة الحاكم | | ملاحظات |
|---|---|---|---|---|---|---|
| | | من | حتى | من | حتى | |
| ١٦ | عبد الملك بن قطن الفهري | 732 | 734 | | 734 | بلج بن بشر بن عياض يستولي على الأندلس في جماعة من أصحابه وقتل بن قطن |
| ١٧ | عقبة بن الحجاج السلولي | 734 | 740 | | 741 | |
| ١٨ | عبد الملك بن قطن الفهري | 740 | 741 | | | |
| ١٩ | بلج بن بشر القشيري | 741 | 742 | | 472 | ثم قتل بالقرب من قرطبة |
| ٢٠ | ثعلبة بن سلامة العاملي | 742 | 743 | | | |
| ٢١ | الحسام بن ضرار الكلبي | 743 | 745 | | 747 | ثار عليه الصميل بن حاتم الكلبي وخلعه ثم قتل بعدها |
| ٢٢ | ثوابة بن سلمة الجدامي | 745 | 746 | | 746 | |
| ٢٣ | الصميل بن حاتم الكلبي | 746 | 747 | | 759 | |
| ٢٤ | يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب | 747 | 756 | | 759 | دخول عبد الرحمن بن معاوية الأندلس |
| | **الأمويون في الأندلس (الأمراء)** | | | | | |
| ١ | أبو المطرف «الداخل» عبد الرحمن بن معاوية | 756 | 788 | 731 | 788 | |
| ٢ | أبو الوليد «الرضي» هشام بن عبد الرحمن | 788 | 796 | 757 | 796 | |
| ٣ | أبو العاص «المرتضى» الحكم بن هشام | 796 | 822 | 770 | 822 | الحكم الرضي |
| ٤ | أبو المطرف «الناصر» عبد الرحمن (٢) بن الحكم | 822 | 852 | 792 | 852 | |
| ٥ | أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن (٢) | 852 | 886 | 823 | 886 | |
| ٦ | أبو الحكم المنذر بن محمد | 886 | 889 | 844 | 889 | |
| ٧ | أبو محمد عبد الله بن محمد | 889 | 912 | 844 | 913 | |

| | الحاكم | فترة الحكم من | فترة الحكم حتى | حياة الحاكم من | حياة الحاكم حتى | ملاحظات |
|---|---|---|---|---|---|---|
| ٨ | أبو المطرف «الناصر لدين اللّه» عبد الرحمن (٣) بن محمد | 912 | 929 | 890 | 961 | ثم تلقب بأمير المؤمنين |
| | **الأمويون (الخلفاء)** | | | | | |
| ٨ | أبو المطرف «الناصر لدين اللّه» عبد الرحمن (٣) بن محمد | 929 | 961 | 890 | 961 | |
| ٩ | أبو المطرف «المستنصر باللّه» الحكم بن عبد الرحمن | 961 | 976 | 915 | 976 | |
| ١٠ | أبو الوليد «المؤيد باللّه» هشام الحكم | 976 | 1009 | 965 | 1013 | خلع ثم أعيد وقتل |
| | **الحجاب** | | | | | |
| | جعفر بن عثمان المصحفي | 976 | 978 | | 983 | الحاجب |
| | أبو عامر «المنصور باللّه» محمد بن عبد اللّه بن عامر | ٩٧٨ | 1002 | 939 | 1002 | الحاجب، اسمه الكامل: محمد بن عبد اللّه بن عامر بن محمد أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري القحطاني |
| | أبو مروان «المظفر» عبد الملك بن أبي عامر | 1002 | 1008 | 975 | 1008 | الحاجب |
| | أبو المطرف سنجول «المأمون» عبد الرحمن بن أبي عامر | 1008 | 1009 | 984 | 1009 | أو سانشو، أمه ابنة (سانشو ملك (نفارا)، كان حاجباً ثم قتل |
| | **الأمويون** | | | | | |
| ١١ | «المهدي باللّه» محمد بن هشام | 1009 | 1009 | 980 | 1010 | ثم خلع |
| ١٢ | «المستعين باللّه» سليمان بن الحكم | 1009 | 1010 | 958 | 1016 | ثم قتل |
| ١١ | «المهدي باللّه» محمد بن هشام | 1010 | 1010 | 980 | 1010 | ثم قتل |

| | الحاكم | فترة الحكم | | حياة الحاكم | | ملاحظات |
|---|---|---|---|---|---|---|
| | | من | حتى | من | حتى | |
| ١٠ | أبو الوليد «المؤيد بالله» هشام الحكم | 1010 | 1013 | 965 | 1013 | ثم خلع وقتل |
| ١٢ | «المستعين بالله» سليمان بن الحكم | 1013 | 1016 | 958 | ثم قتل | |
| بنو حمود | | | | | | |
| ١٣ | «الناصر» علي بن حمود | 1016 | 1018 | | 1018 | ثم قتل |
| الأمويون | | | | | | |
| ١٤ | «المرتضى» عبد الرحمن بن محمد | 1018 | 1018 | | 1018 | ثم قتل |
| بنو حمود | | | | | | |
| ١٥ | «المأمون» القاسم بن حمود | 1018 | 1021 | | 1036 | من بني حمود العلويين ثم قتل |
| ١٦ | «المعتلي» يحيى بن علي | 1021 | 1023 | | 1035 | خلع |
| ١٥ | «المأمون» القاسم بن حمود | 1023 | 1023 | | 1036 | ثم قتل |
| الأمويون | | | | | | |
| ١٧ | «المستظهر بالله» عبد الرحمن بن هشام | 1023 | 1024 | 1001 | 1024 | ثم قتل |
| ١٨ | «المستكفي» محمد بن عبد الرحمن | 1024 | 1025 | 976 | 1025 | ثم قتل |
| بنو حمود | | | | | | |
| ١٦ | «المعتلي» يحيى بن علي | 1025 | 1027 | | 1035 | خلع |
| الأمويون | | | | | | |
| ١٩ | «المعتمد على الله» هشام بن محمد | 1027 | 1031 | 975 | 1936 | خلع وبه انتهت الخلافة |

| | الحاكم | فترة الحكم من | فترة الحكم حتى | حياة الحاكم من | حياة الحاكم حتى | ملاحظات |
|---|---|---|---|---|---|---|
| **بنو جهور** | | | | | | |
| ١ | أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور | 1031 | 1043 | | 1043 | كان قاضي قرطبة في وقته |
| ٢ | أبو الوليد محمد بن جهور | 1043 | 1058 | | 1070 | |
| ٣ | عبد الملك بن محمد بن جهور | 1058 | 1069 | | | دخول بني عباد |
| **بنو عباد** | | | | | | |
| ١ | الظافر بن المعتمد | 1069 | 1069 | | | دخل الظافر بعد أن استغاث به بنو جهور أثناء حصار بني ذي النون، فدخل المدينة واستولى على الحكم |
| ٢ | عباد بن محمد | 1069 | 1075 | | | |
| **العمال من قبل أمراء طليطلة** | | | | | | |
| | حيرز بن عكاشة | 1075 | | | | دخل حيرز بن عكاشة قائد بني ذي النون بعدما قتل الظافر |
| | حكم بن عكاشة | | 1078 | | | |
| **بنو عباد** | | | | | | |
| ٢ | المأمون بن المعتمد | 1078 | 1091 | | | دخول المعتمد بن عباد تولية ابنه المدينة |
| **العمال من قبل أمراء المرابطين** | | | | | | |
| | أبو محمد مزدالي بن سلنكان | 1091 | | | 1115 | تواريخ متضاربة، زد سنة على كل تاريخ تقريباً |
| | أبو عبد الله بن أبي بكر اللمتوني | | 1107 | | | |
| | محمد بن يونان | 1107 | 1109 | | | |

| | الحاكم | فترة الحكم من | فترة الحكم حتى | حياة الحاكم من | حياة الحاكم حتى | ملاحظات |
|---|---|---|---|---|---|---|
| | أبو عبد اللّه محمد | 1109 | 1111 | | | |
| | أبو محمد مزدالي بن سلنكان | 1111 | 1115 | | | |
| | محمد بن مزدالي | 1115 | 1115 | | | |
| | أبو بكر بن يحيى بن تاشفين | 1115 | | | | |
| | أبو بكر يحيى بن رواد | 1120 | 1121 | | | |
| | تميم بن يوسف | 1121 | 1125 | | | |
| | أبو حفص بن سير | 1125 | 1128 | | | |
| | عبد اللّه بن محمد بن أسيغ | 1128 | 1128 | | | |
| | أشداي بن سير | 1128 | 1128 | | | |
| | أبو زيد تيكلمات | 1128 | 1129 | | 1129 | |
| | أبو محمد عبد اللّه بن تنغمر | 1129 | 1132 | | | |
| | تاشفين بن علي | 1132 | 1138 | | 1145 | |
| | أبو محمد الزبير | 1138 | 1143 | | | |
| | يحيى بن غانية | 1143 | 1146 | | 1149 | |
| **بنو حمدين** | | | | | | |
| ١ | أبو جعفر المنصور أحمد بن محمد بن حمدين | 1145 | 1146 | | 1151 | كان بن محمد قاضي المدينة آنذاك |
| **بنو هود** | | | | | | |
| | سيف الدولة أبو جعفر أحمد | 1146 | 1146 | | | مع غرناطة |
| **بنو حمدين مرة ثانية** | | | | | | |
| ٢ | أبو جعفر المنصور أحمد بن محمد بن حمدين | 1146 | 1146 | | 1151 | مرة ثانية ثم عاد يحيى بن غانية |
| **بنو غانية** | | | | | | |
| ١ | يحيى بن غانية | 1146 | 1147 | | | ثم استولى عليها الموحدون |

| الحاكم | فترة الحكم |  | حياة الحاكم |  | ملاحظات |
|---|---|---|---|---|---|
|  | من | حتى | من | حتى |  |
| **العمال من قبل أمراء الموحدين** |  |  |  |  |  |
| أبو حفص بن عبد المؤمن | 1147 |  |  |  |  |
| ..... |  | 1152 |  |  |  |
| أبو زيد بن بكيت | 1152 | 1166 |  |  |  |
| أبو إسحاق بن عبد المؤمن | 1166 | 1170 |  |  | من قبل أخيه أبو يعقوب |
|  | 1170 | 1172 |  |  |  |
| أبو يعقوب بن عبد المؤمن | 1172 |  |  |  | السلطان ثم رحل عنها |
| أبو الحسن بن عبد المؤمن | 1176 | 1182 |  |  |  |
| أبو يحيى بن أبي يوسف يعقوب | 1182 |  |  |  |  |
|  |  | 1214 |  |  |  |
| أبو العلي بن يوسف بن عبد المؤمن | 1214 | 1127 |  |  | تواريخ تقريبية (كان في الإمارة سنة ٦٢٠هـ) |
| أبو محمد «البياسي» بن أبي عبد الله محمد بن أبي حفص بن عبد المؤمن | 1227 |  |  |  | اختص الإمارة لنفسه |
| أبو الربيع بن عبد الله بن عبد المؤمن |  | 1230 |  |  | ثم قتله محمد بن يوسف بن هود |
| **العمال من قبل أمراء مرسية** |  |  |  |  |  |
| عمال بني هود | 1230 | 1232 |  |  | ثم دخول بن الأحمر |
| **العمال من قبل أمراء أرجونة** |  |  |  |  |  |
| عمال بني نصر | 1232 | 1232 |  |  | ثم رحل بن الأحمر عنها إلى إشبيلية |
| **العمال من قبل أمراء مرسية** |  |  |  |  |  |
| عمال بني هود | 1232 | 1236 |  |  | ثم دخول لبن الأحمر؟؟؟ وأخيراً سقطت في أيدي القشتاليين |

# إسبانيا في عهد المسلمين
## حاضرة متألقة وهمزة وصل حضارية

### موقع

تقع إسبانيا في جنوب غرب أوروبا، عاصمتها مدريد، تشمل الجزء الأكبر من شبه جزيرة إيبريا، تجاورها البرتغال، وتفصلها جبال البرنس عن فرنسا، ومضيق جبل طارق عن المغرب جنوباً، أهم مدنها: برشلونة، بلنسية، سرقوسة، مرسية، قرطبة، ولها ساحل طويل على البحر المتوسط في الشرق والجنوب الشرقي.

### لمحة تاريخية

خضعت إسبانيا في القرن الأول الميلادي لحكم الإيبريين سكان البلاد القدماء، واكتسبوا حق المواطنية الرومانية، ولكنها ما لبثت أن خضعت في القرنين الخامس والسادس لحكم البرابرة الغزاة الذين شنوا عليها حرباً مدمرة.

في القرن العاشر، وبالتحديد في سنة ٧١١م. بدأ الفتح الإسلامي لإسبانيا بقيادة طارق بن زياد الذي هزم ملك القوط في معركة «وادي بكة»، وشتت شمل رجاله، وفي السنة التالية جنّد موسى بن نصير بما جرى حتى جنّد جيشاً، والتحق بطارق في سنة ٩٣هـ، وأكملا فتح إسبانيا التي أسماها المسلمون «الأندلس»، ولكن المسلمين تعرضوا لنكسة في ١١٥هـ، ٧٣٢م حيث انهزموا في معركة «بواتيه» على يد ملك الفرنج شارل مارتل، وبذلك أوقف الزحف الإسلامي داخل القارة الأوروبية.

ظلت هذه البلاد خاضعة للخلافة الأموية ٣٩ سنة، وبلغت ذروة مجدها في أيام عبد الرحمن المعروف بـ«الداخل»، ولكن عصر الأمجاد هذا تراجع حيث سادت صفوفهم الفرقة والانقسام، وأنهكتهم الصراعات، ما سهّل على

جيوش قشتالة استعادة إسبانيا، وإخضاع غرناطة آخر معاقل المسلمين فيها في سنة ١٤٩٢م. وهي السنة التي قام كولومبوس فيها برحلته الاستكشافية إلى أميركا، ليرحل المسلمون عن «الأندلس» نهائياً، بعد أن أخضعوها لسلطانهم ثمانية قرون.

ترك المسلمون في الأندلس بصمات واضحة في مختلف الميادين، ما جعل منها حاضرة متألقة، وحلقة وصل حضاري بين الإسلام والغرب، وركيزة من الركائز الأساسية للنهضة الحديثة في أوروبا والعالم، ويشهد على ذلك ما خلّفوه من آثار، بلغت غاية في الدقة، والاتقان، والروعة، والجمالية.

ومن الجدير ذكره أن المسلمين في الأندلس لم يعيشوا نمطاً واحداً، بل طرأت على أحوالهم بعض التغيرات، حيث كان للظروف والعوامل التي أحاطت بهم دورها في إبراز سماتهم الحضارية، وإنتاج مفاهيمهم السياسية والفكرية ـ وبتعبير آخر ـ منظومتهم الحياتية، سواء كانوا من الذين فتحوها، أو الذين عاشوا فيها، أو الذين اعتنقوا الإسلام من الإسبان، أو الذين تبنوا بعض العادات والتقاليد الإسلامية.

## الفاتحون

كانت أولى التسميات التي أطلقت على المسلمين في إسبانيا، هي تسمية «المسلمون الفاتحون» التي شملت كلّ المسلمين سواء الذين فتحوا شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال حالياً) سنة ٩٢هـ (٧١١م) سواء كانوا من البربر الذين حضروا من المغرب مع القائد العسكري طارق بن زياد، وكان عددهم سبعة آلاف جندي، أو من العرب الذين حضروا من المشرق العربي ودخلوا شبه الجزيرة الإيبيرية سنة (٧١٢م) بقيادة موسى بن نصير لمساعدة الفاتحين الأوائل ومتابعة تقدّمهم في الأراضي الإيبيرية.

حقق هؤلاء إنجازات باهرة، وأخضعوا لسيطرتهم مدن إسبانيا، باستثناء بعض المناطق الواقعة في الشمال، وتوغلوا في بعض الأراضي الفرنسية حتّى وصلوا إلى بواتييه، ولكن شارل مارتل أوقف تقدّمهم سنة (٧٣٢م) في وقعة بلاط الشهداء التي خسرها المسلمون واستشهد فيها المجاهد الكبير عبد الرحمن الغافقي.

خضعت الأندلس منذ الفتح الإسلامي للأمويين، ومن ثُمّ للعباسيين، ولم تلبث أن أصبحت إمارة مستقلة على يدي عبد الرحمن الأوّل «الداخل» الذي فرّ إليها من السلطة العباسية، واتخذ من قرطبة عاصمة لإمارته، الذي حاول أن يجعلها عاصمة على غرار دمشق، فبنى جامع قرطبة الذي استوحى فكرته من جامع بني أمية في دمشق.

وبعد انتهاء فترة الإمارة سنة ٩٢٩م. تولى الحكم عبد الرحمن الثالث «الناصر» وبدأت معه فترة الخلافة التي دامت حتّى وفاة عبد الملك «ابن المنصور» سنة ١٠٣١م. وأدّت وفاته إلى تشتت الخلافة، وظهور ممالك الطوائف الذين حكموا مناطق متفرّقة من الأندلس.

## المرابطون

شجعت حالة الانقسام والتشظي التي عصفت بالأندلس الجيوش الإسبانية في شمال إسبانيا على لم شملها وتكتيل قواها، فتمكنت بقيادة ملكها ألفونسو السادس من استرداد مدينة طليطلة من المسلمين سنة ١٠٥٨م، التي شكّل سقوطها ضربة قوية للمسلمين، فاضطروا لطلب مساعدة من إخوانهم المرابطين في المغرب. فلبوا الدعوة وهاجموا الإسبان في منطقة قرب بداخوس (غرب إسبانيا) وانتصروا عليهم سنة ١٠٨٦م في معركة الزلاقة. وتشجع قائد المرابطين واستولى على الحكم الإسلامي في الأندلس بشكلٍ كامل وبقي مسيطراً عليه حتّى عام ١١٤٨م. وقد أطلق اسم «المرابطين» على الأشخاص الذي التفوا حول العالم القيرواني الفقيه في الدّين عبد اللّه بن ياسين الجذولي الذي أرسل معهم لتعليمهم شريعة ربّهم إذ أقام رباطاً وانقادوا له.

## الموحّدون

تولى الموحّدون حكم الأندلس بعد المرابطين، وهم جماعة أطلقوا على أنفسهم هذا الاسم، ودعوا لتصحيح الفهم الإسلامي، والعودة بالمسلمين إلى القرآن الكريم والسنّة النبوية بعد انصراف عدد من علماء المغرب بدراساتهم إلى المبالغة بالفقه المذهبي وفروعه، واستمروا في حكم الأندلس حتّى سنة ١٢٣٢م.

اتخذوا من إشبيلية عاصمة لهم، وجهدوا لجعلها في مصاف العواصم الكبرى، فشيدوا فيها عدداً من المعالم الحضارية، التي كان من أهمها الخيرالدا أو (المئذنة) التي بدأ ببنائها أبو يعقوب يوسف سنة ١١٧٢م، وتابع ابنه أبو يوسف يعقوب المنصور بناءها من بعده. وتعتبر الآن من أعظم الآثار الإسلامية في الأندلس ورمز مدينة إشبيلية. كما خلّف الموحّدون في إشبيلية برج الذهب الذي أقيم لحراسة المدينة ومراقبة حركة الملاحة وللدفاع عنها من القشتاليين الذي سيطروا أخيراً على كثير من المواقع الأندلسية المهمّة، وبدا تفوّق قواتهم واضحاً نتيجة لاتحادهم المتين واتفاقهم على توجيه ضربة للحكم الإسلامي في الأندلس. وإزاء حالة التحدي برزت بعض الشخصيات الإسلامية المهمّة مثل ابن الأحمر الذي استطاع بعد وفاة منافسه ابن هود تشكيل مملكة غرناطة التي كانت تضمُّ غرناطة ومالقة وبعض المناطق الجنوبية في الأندلس. وكان من أهم منجزاته العمرانية بناء قصر الحمراء العظيم الذي يُعتبر أهم أثر تركه العرب في إسبانيا، والذي ما زال باقياً حتّى الآن كتحفة تمجد دور العرب المسلمين وإبداعهم المعماري الباهر.

## الأسالمة والمولّدون

دخل أهالي سكان البلاد الأصليين الإسلام بعد أن وجدوا في المسلمين كرم الأخلاق وحُسن المعاملة، وكان ذلك بخلاف ما لاقوه من معاملة القوطيين لهم، فأطلق عليهم اسم الأسالمة، أو المسالِمَة في بعض الأحيان، كما كان يُطلق على أولاد الأسالمة اسم «المولّدون» وقد عاش المسلمون والأسالمة إخواناً دون أي تمييز. وكان قد برز من بين هؤلاء المسالمة عدد من الشخصيات المهمة كمهدي بن مسلم الذي تولى قضاء قرطبة أيام والي الأندلس عقبة بن الحجاج السلولي، وأبي محمّد علي بن أحمد بن سعيد بن سعيد حزم، العالم الموسوعي والكاتب المشهور الذي كما يقال يعود في أصوله إلى المسيحية.

## الصقالبة

أمّا الصقالبة فقد برزت آراء مختلفة عن أصلهم، أكثرها رواجاً تشير إلى أنّه كان يؤتى بهم من الدول الأوروبية، وخصوصاً من بلاد السلاف شرق

أوروبا، سلط الاهتمام على البارزين منهم لتربيتهم تربية توافق ميولهم.

في البداية كانوا يعملون خدماً ثُمّ لم يلبث أن تحسنت أوضاعهم شيئاً فشيئاً، حيث ازداد عددهم في عهد عبد الرحمن الناصر، وتولوا وظائف حربية وإدارية في عهد المنصور بن أبي عامر، كما برز منهم بعض المفكّرين والأدباء، ووصلوا إلى درجة عالية من القيادة، فحكموا مملكة بلنسية في فترة الطوائف وبقوا في الحكم فترة من الزمن دامت حتّى سنة ٤١١هـ ١٠٢١م.

## المدجّنون

وبعد استرداد المسيحيين لبعض المناطق الواقعة في شمال شرقي شبه الجزيرة الإيبيرية وبالضبط إقليمي كاتولونيا وأراغون، بقي بعض المسلمين الذين لم يهاجروا بعد خسارة المسلمين لهذين الإقليمين تحت السيطرة المسيحية فسمّوا بـ«المدجّنين». وازداد عددهم ازدياداً واضحاً بعد سقوط مدينة طليطلة سنة ١٠٥٨م، وبلنسية سنة ١٠٩٤م ومورسيا سنة ١٢٦٦م. وقد لقي هؤلاء الكثير من العنف وسوء المعاملة من القشتاليين، ومُنعوا من التكلّم باللغة العربية، فاضطروا للبحث عن لغة خاصّة بهم، وكانت «الخميادو» التي استخدموا فيها الكلمات العربية وكتبوها بحروف إسبانية، كما شيدوا العمران، وأبدعوا في الفنون، ولا يزال حتّى الآن الأثر الإسلامي واضحاً في الكنائس التي بُنيت في عهدهم، كما لا تزال بعض فنونهم التقليدية معروضة في متاحف الآثار في مدريد وطليطلة وغرناطة وقرطبة.

## الموريسكيون

بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م، وانتهاء حكم المسلمين للأندلس بقي كثيرٌ من المسلمين تحت حكم السلطات الإسبانية التي أجبرتهم على التنصر بعد أعوام قليلة من سيطرتهم عليها، وتحوّل العرب المسلمون إلى مسيحيين كاثوليك، وسمّوا بـ«الموريسكيين» أو «المسلمين الصغار» أو «العرب المتنصرين»، وتابعوا استعمال لغة «الخميادو» التي كان يتداولها المدجّنون، واستمرت هذه اللغة حتّى مطلع القرن الثامن عشر. وظهر أدب خاص بهم دعي بالأدب الموريسكي. ولكن الموريسكيين لم يقفوا موقف المتفرج إزاء وضعهم

الصعب، خاصة بعد نقض السلطات الإسبانية بنود معاهدة تسليم غرناطة لإسبانيا والتي كانت تشمل ٦٧ شرطاً تضمن الحياة العادية للمسلمين. فقاموا بتمرّدات ضدّ المسيحيين، ومن أهمها التمرّد الذي حصل في سنة ١٥٠٠م في بلد غواديس التي كانت جزءاً من مملكة بني نصر في غرناطة منذ سنة ١٢٣٨م. تمسك الموريسكيون بوجودهم وعاداتهم وتقاليدهم الإسلامية، ومقاومتهم لكل المحاولات الهادفة للتخلي عنها، ولكن هذه المحاولات لقيت مقاومة أدت إلى ظهور محاكم التفتيش ضدّ كلّ من تبدو عليه أيّة صلة بالإسلام أو يُضبط حاملاً أيّة شارة من شاراته أو مؤدياً لشعائره أو ممارساً لعاداته. وعندما لم تستطع السلطات الإسبانية فرض ما تريده عليهم قررت التخلّص منهم بعد إلحاح شديد من الكنيسة، وصدر المرسوم الذي نصّ على نفيهم من أراضيها سنة ١٦٠٩م بحجّة التآمر على الحكم والاتصال مع عناصر من خارج البلاد، فرُحِّلوا إلى تونس والجزائر والمغرب، وأسسوا قرى ومدناً أهمها قرية تستور. وبرز عدد من الموريسكيين اللامعين منهم على سبيل المثال الكاتب أحمد بن القاسم الفقيه ابن الشيخ الحجري وكان يُعرف بالشهاب الحجري وكانت له اليد الطولى في الترجمة من العربية إلى الإسبانية وبالعكس وأهم كتاب له هو «رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب».

## الموروس

أمّا الموروس فهي جمع لكلمة مورو التي تعني العربي أو المسلم الذي أتى من المغرب، وجاء هذا الاسم من اسم مراكش في المغرب. ويستعمل هذا اللقب بشكل خاطئ من قبل كثير من الإسبان إذ يُطلقون لفظ مورو على كلّ عربي موجود في إسبانيا أو خارجها سواء كان من المغرب أو من دول الشرق حتّى لو كان مسيحياً، ويستخدمون هذه التسمية للدلالة على شخص يقوم بعمل غير محبب عندهم، ولا يُنادون به العربي وجهاً لوجه من دون معرفة درجة تقبله له.

## الموروس كورتادوس

أما المسلمين الذين كانوا يشتغلون بالزراعة ورعاية الماشية، ولم يُسمح

بتطبيق قانون الإبعاد عليهم لأنهم كانوا عبيداً لأصحابهم، فلقبوا بالموروس كورتادوس أو العرب المبتورين إن صحت الترجمة. وتابعت محاكم التفتيش مهماتها حتّى القرن الثامن عشر، والذي كان بداية العكوف بشكل جزئي عن ملاحقة التظاهر بالإسلام أو التأييد له. وقد تعرض هذا القانون في تلك الفترة لانتقاد شديد من قبل بعض المفكرين والأدباء، وفي مقدمة هؤلاء الأديب خوفياندس، ما أدّى في النهاية إلى إصدار القرار النهائي بإلغاء محاكم التفتيش عام ١٢٣٥هـ/ ١٩٢٠م.

## المستعربون

لم ينته أثر المسلمين وفضلهم على الإسبان بعد خروجهم منها، بل ما زالت بصماتهم في مجالات الحياة كافة شواهد أبدية على عظمتهم. وبرز كثير من المستعربين أو النصارى المعاصرين أو الأندلسيين المسيحيين، وغالبيتهم من المسيحيين الذين اختلطوا بالأندلسيين وتبنوا بعض العادات الإسلامية وتعلّموا اللغة العربية، وظلّوا في المناطق التي كان يحكمها العرب، وعاشوا في بيوت لها مخطط البيوت العربية.

تعتبر حركة الاستعراب الإسبانية من أقدم أنواع الاستشراق في الغرب كنتيجة طبيعية لحكم المسلمين الطويل لإسبانيا منذ بداية القرن الثامن الميلادي، وكانت دراسات المستعربين الإسبان للمواضيع العربية أكثر عمقاً وتأثراً من دراسات المستشرقين الغربيين للعالمين العربي والإسلامي. ولم تقتصر اهتمامات الإسبان في دراسة الإسلام بل نرى الكثير من المستعربين الإسبان الذي سخّروا كثيراً من وقتهم لتعلّم اللغة العربية لكي يُتاح لهم التعرّف جيّداً على حضارة العرب في إسبانيا وعلى تاريخ الإسلام، وليكون اتصالهم بهم أشدّ صلة، ومعلوماتهم أكثر دقة، ويأتي في مقدمة هؤلاء المستعربين أميليو غارثيا غوميز الذي لعب دوراً كبيراً في التعريف بالحضارة العربية الإسلامية في الأندلس من خلال أبحاثه ومحاضراته المتنوّعة.

## المسلمون الذين حنّوا إلى مجد أجدادهم

على رغم ظهور بعض الجاليات والعائلات من أصول إسلامية في النصف

الثاني من القرن التاسع عشر، إلّا أنّ دورها وعددها كان ضئيلاً. وما زاد في أعدادهم، تلك السمعة الطيبة التي انتشرت في بداية النصف الثاني من القرن العشرين عن إسبانيا كواحدة من أجمل بلاد العالم، لما تتمتع به من طقس لطيف وطبيعة خلابة وشواطئ جميلة وآثار معمارية عريقة، إضافة لما يتميّز به شعبها من حسن المعاشرة وكرم الضيافة وسهولة المخالطة. . . وهذا ما شجع السياح والطلاب في كثير من دول العالم على زيارتها للدراسة أو للإقامة فيها وخصوصاً العرب والمسلمين الذي حنّوا إلى بلاد أجدادهم وإلى فترة من تاريخهم المشرق، فيقيم قسم منهم في مدريد العاصمة الإسبانية التي يعود الفضل في بنائها إلى الأمير الأندلسي محمّد بن عبد الرحمن بن الحكم، وقسم آخر يقيم في برشلونة ثانية المدن الإسبانية وأهمها اقتصادياً. أمّا القسم الأكبر فاستقر في المدن الأندلسية قرطبة وإشبيلية وغرناطة وبلنسية وماربيا، وبنوا فيها القصور والفيلات الفخمة وشيدوا المساجد والمراكز الإسلامية وشجعوا جمعية الصداقة العربية ـ الإسبانية، كما عملوا على تشكيل النوادي العربية ـ الإسبانية، وجمعية الصحافيين، بهدف زيادة روابط الجاليات العربية بأوطانها، والإكثار من نشاطاتها من المناسبات الدينية والعربية ووضع الحلول المناسبة لأولاد الجاليات العربية الذين يعيشون في بيئة غربية مغايرة للبيئة العربية التي عاش فيها آباؤهم.

وعند التكلّم عن المسلمين في إسبانيا، يجب عدم نسيان المسلمين المقيمين في مدينتي سبته ومليلة المحتلتين من قبل الإسبان، ويشكلون نسبة جيّدة من عدد المسلمين في كامل إسبانيا الذي يُقدّر بحوالي ٦٠٠ ألف مسلم، منهم ٢٠٠ ألف شخص ولدوا وهم يحملون الجنسية الإسبانية، أو لأبوين مسلمين، أو اعتنقوا الإسلام خلال السنوات العشرين الأخيرة لأسباب مختلفة، مثل البحث عن أصولهم الأندلسية، أو التعب من الدين الكاثوليكي، أو لأسباب مالية. هذا وتختلف أعمال المسلمين في إسبانيا بحسب وضعهم العلمي والاقتصادي، فبعضهم يعمل كرجال أعمال أو أطباء أو أصحاب مطاعم، بينما يعمل البعض الآخر، خصوصاً المسلمين المغاربة، بأعمال ذات مجهود عضلي نادراً ما يقوم بها الإسبان.

ويواجه المسلمون في إسبانيا، نتيجة الظروف التي تمرّ بها تلك البلاد، مشكلات متنوّعة، سواء لسوء تعامل بعض الإسبان معهم، وخصوصاً المتطرفين الذين يرون فيهم منافسين لهم ولأولادهم عند البحث عن عمل، أو لإهمالهم من قبل المجتمع الإسباني، أو لطبيعة حياتهم، وخصوصاً في ما يتعلّق بأسمائهم وصعوبة لفظها من قبل الإسبان.

# التقسيم الإداري في الأندلس

إن من يدرس جغرافية شبه جزيرة «أيبيريا»، يجد أن حدودها الطبيعية تصلح تماماً لأن تكون حدوداً سياسية إدارية، فسلاسل الجبال ووديان الأنهار التي تقطعها في خطوط مستعرضة من الشرق إلى الغرب أو العكس، قد قسمتها إلى أقسام طبيعية يمكن تحويلها إلى وحدات إدارية وعسكرية واضحة المعالم. فما كان على المنظم أو الإداري إلا أن يثبت حدود هذه الوحدات ويعين قواعدها، فلا يجد صعوبة في إدارتها وجباية خراجها. وهذا ما فعله الرومان والقوط. ثم جاء المسلمون فاحتفظوا بهذه التقسيمات الإدارية ولكنهم سموها مدناً بدلاً من كيفتاس Civtas، «وكورا» بمعنى ولايات ـ بدلاً من بروفنكياس Provingias، وأضافوا إليها عدداً من المنشآت التي تعطيها الطابع الإسلامي المميز لها كالمسجد الجامع، وقصر الإمارة أو الخلافة، والأسواق والقيساريات إلى غير ذلك مما يناسب طبيعة دولتهم الإسلامية. هذا إلى جانب ما أضافوه من مدن جديدة لأن البناء والعمران من مستلزمات التحضر ومثال ذلك:

١ ـ الجزيرة الخضراء Aleciras، التي بناها «طارق بن زياد» بجوار جبل طارق، وكانت تعرف بجزيرة أم حكيم محلى اسم زوجته التي تركها هناك أثناء قيامه بفتح الأندلس.

٢ ـ طريف Tarifa، غربي الجزيرة الخضراء، وهي على اسم «طريف بن مالك» أحد قواد، موسى بن نصير الذي أغار على هذه المنطقة فسميت البلدة باسمه.

٣ ـ قلعة أيوب Calayud، في شمال إسبانيا، بناها «أيوب بن حبيب اللخمي» الذي ولي الأندلس بعد مقتل ابن عمته «عبد العزيز بن موسى بن نصير».

٤ ـ مدينة سالم Medinaceli، في شمال إسبانيا، بناها «سالم بن ور عمال

المصمودي» أحد قواد البربر الذين شاركوا في فتح الأندلس.

٥ ـ تطيلة Tudela، على وادي الأبرو في شمال إسبانيا، بناها الأمير الحكم بن هشام المعروف بالربضي، وينسب إليها الشاعر «أبو العباس القيسي» المعروف بالأعمى التطيلي (ت٥٣٢هـ ١١٢٧م).

٦ ـ مرسية Murcia، في شرق الأندلس وقد تعني المرساة التي أرسيت قواعدها. بناها الأمير «عبد الرحمن الأوسط الأموي» (سنة ٢١٦هـ/ ٨٣١م) وينسب إليها علماء كثيرون مثل «ابن سيده اللغوي الصنوبر» (ت٤٠٨هـ/ ١٠٦٥م) صاحب المخصص في اللغة، والعالم «ابن سبعين» (ت٦٦٩هـ) صاحب الرد العلمي المشهور على الإمبراطور «فريدريك الثاني»، والفيلسوف الصوفي «محيي الدين ابن عربي» (ت٦٣٨هـ)، صاحب كتاب «الفتوحات الملكية».

٧ ـ مجريط Madrid، عاصمة إسبانيا الحالية، بناها «الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط» (٣٣٨ ـ ٣٧٣هـ)، وينسب إليها الرياضي الفلكي «مسلمة المجريطي» (ت٣٩٤هـ).

٨ ـ المرية Almeria، قاعدة الأسطول الأندلسي في شرق إسبانيا، بناها المسلمون الأوائل وازدهرت في عهد الخليفة «عبد الرحمن الناصر»، وينسب إليها «بنو ميمون» قادة الأسطول الأندلسي والمغربي على عهد المرابطين والموحدين، والعالم الزاهد «أبو العباس بن العريف» (ت٥٣٥هـ) صاحب كتاب محاسن المجالسة. وقد يكون اسم المرية يعني المرئية أي التي ترى من بعيد في البحر عن طريق مناراتها.

٩ ـ سهلة بني رزين Albarracin، في شمال شرق مدريد، نسبة إلى أمراء بني رزين المغاربة الذين حكموا تلك المنطقة. ولا يفوتنا أن نشير إلى اسم البرانس الذي أطلق على بعض جبال إسبانيا الشمالية، وهو اسم قديم لكتلة البربر! «البرانس» في المغرب التي تنتمي إليها قبيلة «صنهاجة». هذا إلى جانب المنيات والحصون والقصور والقرى التي ما زالت أسماؤها العربية والمغربية تزخر بها الأراضي الإسبانية.

هذا، ويلاحظ أن كلاً من الكور والمدن في الأندلس، كان لها استقلالها

الإداري عن العاصمة قرطبة، وهذا يدل على أن الأندلسيين لم يحرصوا على نظام المركزية في جهازهم الإداري، لأن طبيعة البلاد الجبلية تتنافى مع هذا التركيز سواء في الكور أو المدن. فولاة الكور وقواد المدن كان لهم قسط كبير من النفوذ المحلي وحرية التصرف دون الرجوع إلى الخليفة في «قرطبة». ولكن القول بأن هذه اللامركزية كانت صفة عامة في تاريخ إسبانيا الإسلامية والمسيحية بوجه عام حتى اليوم.

# الدور الاقتصادي للأندلس

حظيت الأندلس بشهرة اقتصادية كبيرة في ميادين الصناعة والتجارة والزراعة.

**فالصناعة** ازدهرت في المدن المختلفة، وتكونت معها طوائف حرفية عرفت باسم الأصناف وأرباب الصناع. وصار لكل صنف أو حرفة رئيس أو شيخ منتخب من أصحابها عرف باسم الأمين أو العريف، وكان هذا الأمين مسؤولاً ومدافعاً عن طائفته وأهل حرفته أمام ممثل الحكومة في سوق المدينة وهو المحتسب. فكان يبلغه رأي طائفته حول تكاليف السلعة التي يصنعونها وتحديد ثمن بيعها، كما يقوم بدور الخبير الفني في الخلافات التي تقع بين أهل حرفته وعملائهم حول سلعة من السلع، ورأيه كان مقبولاً لدى القاضي أو المحتسب. وقد انتقل لفظ الأمين إلى اللغة الإسبانية على شكل Al-Alamin كما استمرت مهمة الأمين موجودة في بعض المدن المغربية وإن كان وجود النقابات العمالية الحديثة قد قللت من قيمة منصبه وأدرجته ضمن أعمالها.

ولقد شبهت الأصناف أو الطوائف الصناعية الإسلامية بنظام نقابات الصناع أو اتحادات العمال التي كانت تسمى في أوروبا Guilds أو Corporations، ولكنها في الواقع كانت تختلف عنها لأنها لم تشارك في إدارة المصالح العامة في المدينة أو تقوم بدور غير دور التحكيم في المشكلات المهنية، في حياة المدينة الاقتصادية، أو تنتزع بعض الامتيازات البلدية تدريجياً، أو تتخذ لنفسها حامياً أو راعياً دينياً من الأولياء والقديسين كما حدث في العالم المسيحي. ثم أن الأصناف أو النقابات الإسلامية لم تعرف الانقسام الذي ظهر في أوروبا الغربية بين أصحاب العمل والعمال، والذي انتهى إلى نشأة جماعات أصحاب العمل، وجماعات العمال.

وكيفما كان الأمر فإن موضوع التشابه والاختلاف بين الأصناف الإسلامية والنقابات الأوروبية، ما زال موضع نقاش بين المؤرخين.

على أن موضع الأهمية هنا، هو أن هؤلاء الحرفيين والصناع بحكم كونهم من طبقة العامة في المدينة الإسلامية، قد لعبوا دوراً هاماً في حياتها العامة، إذ شاركوا في ثوراتها الشعبية، وفرقها الدينية، واحتفالاتها ومواكبها العامة في المواسم والأعياد، وذلك في وقت لم يكن يوجد فيه على نطاق شعبي ذلك الترويح أو التنفيس الرياضي أو الاجتماعي الموجود حالياً.

ولقد كفلت المدينة الإسلامية لعمالها حرية واسعة في ممارسة أعمالهم، ولم تتدخل إلا في بعض الصناعات المحدودة التي كان يتطلب ممارستها الحصول على إذن خاص، مثل إنشاء الحمامات، وصنع الأسلحة، وسك النقود، وتركيب الأدوية، والعمل في دور الطراز. وهذا راجع بطبيعة الحال إلى أسباب تتعلق بالمصلحة العامة أو أمن الدولة. أما موارد الدولة الاقتصادية فكانت تقوم على ضرائب مشروعة وغير مشروعة تمول بها بيت المال. ومن أمثلة الضرائب المشروعة: الأموال الخارجية التي تجبى من الأراضي الزراعية، وأموال الزكاة والجزية والمواريث الحشرية (أي مال من يموت بدون وريث)، والعشور أو الأعشار وهي المال الذي يجبى من تجار الفرنج الذين يفدون ببضعائهم إلى الموانئ الأندلسية فيدفعون عشر قيمتها. وقد انتقلت هذه التسمية إلى اللغة الإسبانية على شكل Alixases. ثم ضريبة التعتيب وهي ضريبة جديدة فرضت في الأندلس في عهد المرابطين وكان الغرض منها ترميم الحصون والأسوار التي حول المدن الرئيسة ويقوم بسدادها أهل هذه المدن المنتفعة بها.

وأما الضرائب غير المشروعة والتي كانت تسمى بالمكوس أو المغارم، فهي ضرائب إضافية نشأت عن حاجات وظروف معينة، اضطرت الدولة إلى فرضها. وكان بعضها يعطى التزاماً، ويسمى الملتزم في الأندلس بالمستقبل بينما يسمى الالتزام قبالة، ومنه دخل في الإسبانية لفظ Alcabala.

ومن حصيلة هذا الدخل المالي في بيت المال كانت الدولة تقوم بأوجه النفقات المختلفة على الجيوش والشرطة والقصر الخلافي والموظفين

والدواوين والمنشآت العامة كالمساجد والمستشفيات والسجون، والعناية بمياه الشرب وإزالة الأوساخ من المسالك والأنابيب. . . الخ.

غير أن هذه الخدمات الحكومية لم تكن لها صفة الدوام في كثير من الأحيان، مما اضطر بعض المدن الكبيرة إلى الاعتماد على نفسها في سد حاجاتها. ومن هنا ظهر لها مورد مالي آخر لعب دوراً هاماً في اقتصادها، وهو نظام الحبوس الذي يسمى في المشرق بالوقف. وهو نظام إسلامي المراد به هو الأراضي والمؤسسات التي تكون ملكاً لشخص حر التصرف في ماله، ثم يتنازل عن حقه في عائدها أو دخلها، ويجعله وقفاً محبساً وبصفة دائمة على المؤسسات الدينية والعلمية والصحية. . ، إلى غير ذلك من المنافع العامة التي تشبه حالياً خدمات البلديات.

ولقد ارتقت الصناعة في الأندلس بتوالي الأجيال واتصال العمران ووفرة المواد الخام النباتية والمعدنية التي اشتهرت بها إسبانيا. على أنها ظلت مع ذلك في مستوى الصانع اليدوي، كما هو سائد في تلك العصور، وبقيت السلع تصنع في البيوت أو المحال والحوانيت.

ولا يتسع المجال لحصر الصناعات التي أنتجتها الأندلس، فهي كثيرة ومتنوعة، ولذا نكتفي بذكر أهمها وهي:

١ ـ **صناعة المنسوجات**: كالحرير بأنواعه المختلفة مثل الخز ويصنع من الحرير والصوف أو الوبر، ومثل الإبريسم وهو حرير خالص، والديباج وهو نسيج حرير موشى بخيوط من الذهب أو الفضة. وكان هذا بفضل عناية أهلها بتربية دودة القز ووفرة أشجار التوت التي تتغذى القز على أوراقها. ويشير المؤرخ الأندلسي «عريب بن سعد» (ت٣٧٠هـ) إلى دور النساء في انتقاء الشرانق ورعاية بيض دودة القز من (شهر فبراير) إلى أن يفقس في (شهر مارس) من كل سنة.

ومن أهم مراكز تربية دودة القز: «غرناطة» و«مالقة» Jaen التي كان يقال لها جيان الحرير لكثرة اعتنائها بدودة الحرير. وكانت مدينة «المرية»، في شرق الأندلس، من أهم مراكز صناعة المنسوجات الحريرية، ويقدر عدد الأنوال فيها بحوالي ٥٨٠٠ نول. كذلك اشتهرت «إشبيلية» بالحلل الموشاة النفيسة ذات

الصور العجيبة والمنتجة برسم الخلفاء فمن دونهم. وبالمثل يقال بالنسبة للثياب الحريرية السرقسطية في شمال إسبانيا. وقد حظيت المنسوجات الأندلسية بشهرة كبيرة في الأوساط الأوروبية الراقية، ونجد ذلك واضحاً في سير الملوك والبابوات والقادة وغيرهم الذين حرصوا على اقتناء هذه الملابس الثمينة. وما زالت هناك قطع عديدة من المنسوجات الأندلسية تحتفظ بها المتاحف الدولية.

كذلك اشتهرت الأندلس بصناعة الأنسجة الصوفية، خصوصاً وإن قسوة المناخ في إسبانيا تحتم اهتمامها بمثل هذه الملابس، ولهذا استخدموا فراء السمور، وفراء القنلية Conejo (الأرنب الجبلي)، والمرعزي المصنوع من شعر الماعز، إلى جانب الملابس الصوفية. وقد اشتهرت كل من «سرقسطة»، و«قونقة» Cuenca «وجنجالة» Chinchilla بعمل ذلك.

أما صناعة السجاد والبسط والحصير، فأهم مراكزها تقع في شرق الأندلس مثل «موسية» و«بسطة» Baza. ولعل كلمة الفومبر Alfombra الإسبانية التي تعني سجادة أو بساط جاءت من الكلمة العربية الخمرة أي الحصيرة، أو لعلها من الحمرة، لأن اللون الأحمر كان يلعب دوراً رئيسياً في ألوانها على غرار البسط الفارسية والمصرية في المشرق.

٢ ـ **صناعة السكر**: لعبت الأندلس دوراً كبيراً في زراعة قصب السكر وعصره وتصنيعه ثم تصديره إلى العالم الخارجي، ومن أهم مراكز إنتاجه وتصنيعه «غرناطة» و«مالقة» و«المنكب» Almunecar واستمر إنتاج السكر في الأندلس حتى سقوط الحكم الإسلامي بها سنة ١٤٩٣م، لدرجة أن الإسبان سمحوا لعدد كبير من المورسكيين (المسلمين المعاهدين) المشتغلين بزراعة السكر، بالبقاء في إسبانيا، ولكنهم رفضوا، وقد ترتب على رحيلهم تضاؤل كمية إنتاجه.

٣ ـ ساهمت الأندلس بدور فعال في **صناعة الورق** الجيد (الكاغد) منذ وقت مبكر سبقت به أوروبا قروناً عديدة، واشتهرت بصناعته كل من «شاطبة» Jatiba و«بلنسية» Valecia في شرق الأندلس. كذلك انتشرت الصناعات الجلدية ودبغها على ضفاف الأنهار، واختصت «قرطبة» بشهرة عالمية في هذه الصناعة، حتى نسبت إليها مصطلحات فرنسية بهذا المعنى، فأطلقوا

على صانعي الأحذية كلمة Cordonniero وعلى الجلد نفسه كلمة Cordouan. أما المصنوعات الزجاجية والخزفية فاشتهرت بها «مالقة» و«المرية» كما اشتهرت «قيجاطة» Quesada بمصنوعاتها الخشبية. هذا إلى جانب المصنوعات العاجية التي تميزت بدقتها وجمال زخارفها على شكل أشخاص أو حيوانات كانت تطعم بها العلب الصغيرة والأدوات المنزلية. ويقال إن كلمة «مارفيل» Marfil الإسبانية أي العاج مشتقة من الأصل العربي «ناب فيل».

**التجارة:** وما يقال عن شهرة الأندلس في الصناعة يقال أيضاً عن مجال التجارة، ولا سيما أن الأندلس تميزت بسواحلها الطويلة وموانيها العامرة، التي تطل على مياه البحر المتوسط والمحيط الأطلسي شرقاً وغرباً وجنوباً. ولهذا أطلقوا عليها اسم جزيرة الأندلس، لأن العرب لم يستخدموا مصطلح شبه الجزيرة في كتاباتهم.

وتعتبر منطقة شرق الأندلس Levante المطلة على البحر المتوسط، أكثر الأقاليم الإسبانية تعرباً، لأن الإسلام أثر فيها تأثيراً عميقاً، بدليل أن معظم أسماء الأماكن فيها عربية الأصل، ويرجع ذلك إلى نشاط اليمنيين القطاعيين، الذين أسند إليهم الأمويون حراسة هذه المنطقة وعمارتها، بما لديهم من خبرة ملاحية قديمة في المشرق، ولذا سميت بأرض اليمن أي عطيتهم وإقطاعهم. وتعتبر مدينة «المرية» هي القاعدة التجارية الرئيسية لهذا الإقليم، وامتلك تجارها ثروات ضخمة حتى يروى على سبيل المثال أن تاجراً استضاف الحاجب، المنصور بن أبي عامر وجيشه الذي يقدر بالآلاف مدة أربعة عشر يوماً.

وقد أفاض الجغرافيون والرحالة في ذكر أهم المنتجات الأندلسية التي كانت تصدر إلى الخارج مثل الملابس المطرزة، والأصواف والأصباغ والحرير واللبود الفاخرة، والورق السميك، والتين الفاخر الجاف، والخزف المذهب، والزعفران، وعصير الكروم.

**أما الزراعة** فتتمثل في المزارع والحدائق والبساتين التي اشتهرت بها الأندلس، والتي كانت تربطها شبكة من القنوات المائية التي ما زالت محتفظة

بأسمائها العربية في اللغة الإسبانية، مثل الساقية Acequia بمعنى الجدول الصغير، والناعورة Noria، والبقاع Vega ومنها انتقلت إلى أمريكا Las Vegas. كما أطلقوا على القصور الملكية الخلوية ذات الحدائق والرياض اسم المنيات جمع منية Huerta، وقد انتشرت هذه المنيات حول «قرطبة» وعلى ضفاف الوادي الكبير، وأشهرها منية الرصافة التي بناها «عبد الرحمن الداخل» وشمال قرطبة ومنية الزهراء والتي بناها الخليفة عبد الرحمن الناصر في شمال غرب «قرطبة»، ومنية الزاهرة التي بناها الحاجب «المنصور بن أبي عامر» في شمال شرق قرطبة. وفي مدينة «بلنسية» بنى الأمير «عبد الله بن عبد الرحمن الداخل»، منية من هذا النوع، أطلق عليها اسم الرصافة، محاكياً بذلك قصر والده. وقد اشتهرت ضواحي «بلنسية» بأزهارها وورودها، وأشجار البرتقال التي تعطر جوها بأريج زكي الرائحة، ولذا عرفت، «بلنسية» باسم «مطيب الأندلس» أي معطرها.

ومن الطريف أن مدينة «بلنسية» ما زالت تحتفظ إلى اليوم ببعض مظاهر ما تبقى من نظم المسلمين المتعلقة بسقاية هذه البساتين، ألا وهي محكمة المياه Tribunal Delasaguas، التي تعقد عند باب الكاتدرائية في الساعة العاشرة ظهراً من كل يوم خميس. وتتألف هيئة المحكمة من خبراء بشؤون الري يمثلون نواحي كورة «بلنسية» ويرأسها مندوب من الحكومة. فإذا دقت الساعة الثانية عشرة، قام الحاجب ليعلن افتتاح الجلسة وينادي أصحاب الظلامات. وبعد المناقشة والمداولة يصدر الرئيس الحكم وهو حكم ملزم لا يقبل المناقشة أو الاستئناف. وهذا ما كان يحدث قديماً أيام المسلمين عند باب المسجد الجامع في نفس موضع الكاتدرائية. ولا يفوتنا أن نشير إلى جنة العريف El Generalife وهو اسم الحديقة الجميلة التابعة لقصر الحمراء في الغرناطة La Alhambra، ذلك القصر الذي صار نموذجاً يحتذى به في بناء القصور الملكية وغيرها في أنحاء العالم.

وقد حافظ الإسبان على القصر وحدائقه الغناء التي لا نسمع فيها إلا خرير المياه في كل مكان. وقد عبّر عن ذلك الشاعر الإسباني جاريثا لوركا بقوله، غرناطة التي تبكي Garanadaque elorae كناية عن كثرة مياهها.

كذلك اشتهرت الأندلس بزراعة أنواع مختلفة من الخضراوات والفواكه لدرجة أن كثيراً من أسمائها دخلت في اللغة الإسبانية مثل: الباذنجان Berenjenas الخرشوف، Alcarchofa، السلق Acelga، الزيتون Aceituna، الزعفران Azafran، الأرز Arroz، السكر Azucar، النارنج (البرتقال) Naranja، البطيخ السندي Sandia . . . الخ.

بقي أن ننوه بالجهود المثمرة التي بذلها علماء الأندلس في تقدم العلوم الزراعية، فقد صنفوا فيها كتباً علمية وأجروا عليها تجارب تطبيقية أفادت العالم: فمنهم من اعتبر أسماء النباتات والأشجار جزءاً من اللغة العربية فدونوها في معاجمهم، كما فعل العالم الأندلسي الضرير «أبو الحسن بن سيده» (ت٥٤٨هـ) في كتابه المخصص. ومنهم من اهتم بالنباتات الطبية التي يستخرج منها الأدوية والعقاقير لفوائدها الصحية، مثل «ضياء الدين بن البيطار المالقي» (ت٦٤٦هـ) صاحب كتاب «الجامع لمفردات الأغذية والأدوية»، ومنهم من كتب عن النبات من حيث زرعه ونموه وتسميده وحصاده أي ما يسمى بالفلاحة، ومن أشهرهم العالم الإشبيلي «أبو زكريا يحيى بن العوام» في كتابه «الفلاحة في الأرضين».

مما تقدم نرى أن الأندلس قد تميزت بنزعتها الجمالية نحو حب الورود والأزهار والأشجار، نلمسها في أحواش بيوتها Patios المزينة بالنافورات والأزهار، وفي صحون مساجدها المليئة بأشجار الليمون والبرتقال، وفي قصائد شعرائها في وصف جمال الطبيعة، وفي مؤلفات علمائها عن الفلاحة والأعشاب الطبية، بل وحتى في أصول أحكامها التشريعية والفقهية التي تتمشى مع ميولها الطبيعية ونزعتها الجمالية.

# الدور العلمي للأندلس

حديثه طويل ومتشعب ومادته غزيرة نجدها فيما تبقى لدينا من تراث أندلسي، ولا سيما كتب التراجم والفهارس والرسائل التي تناولت موضع فضائل أهل الأندلس، مثل رسالة «أبي محمد بن حزم» (ت٤٥٦هـ) إلى «الحسن بن الربيب القيرواني»، ورسالة «أبي الوليد الشقندي» (ت٦٣٩هـ) إلى «يحيى بن المعلم الطنجي» ورسالة «لسان الدين بن الخطيب» (ت٧٧٦هـ) في مفاخرات «مالقة» و«سلا»، ورسائل علي بن سعيد المغربي (ت٦٨٥هـ) التي أوردها «أحمد المقري» (ت١٠٤١هـ) في موسوعة نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب.

ولقد أنجبت الأندلس عدداً كبيراً من العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء والمؤرخين والأطباء وغيرهم، مَمن أثروا الحركة الفكرية بمؤلفاتهم، ووصلوا إلى العقل الأوروبي وأثروا فيه.

وما أسرده هنا من أسماء إن هو إلا قليل من كثير وحصاة من ثبير كما يقولون.

فهناك الفقيه «أبو محمد علي بن حزم القرطبي» (ت٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م) الذي تظهر أصالته واعتزازه بنفسه ووطنه في كتاباته التي سبقت عصرنا. نذكر منها كتاب «طوق الحمامة في الألفة والآلاف» الذي يتناول فيه صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه. فنجده يعرض عن ذكر ما كتبه الأقدمون من أشعار الغزل وبكاء الأطلال والدمن ويسلك طريقاً مستقلاً يبين نضجه وأصالته.

وقد اهتم الأوروبيون بهذا الكتاب واعتبروه أول دراسة نفسية تحليلية لعاطفة الحب والمحبين، وترجموه إلى لغات عديدة. أما كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل»، فهو عبارة عن دراسة نقدية للأديان والمذاهب والفرق

الدينية المختلفة، ومقارنة بعضها بالبعض الآخر ويلاحظ أن هذا النوع من الدراسة، وهو التاريخ المقارن للأديان، لم يوجد في أوروبا إلا في القرن الماضي، وهذا يرينا أصالة هذا الكتاب وإسهامه في الحضارة الإنسانية.

وما يقال عن «ابن حزم» يقال أيضاً عن معاصره وصديقه «أبي مروان بن حيان القرطبي» (ت٤٦٩هـ-١٠٧٧م) الذي يعتبر أعظم مؤرخ أنجبته إسبانيا الإسلامية والمسيحية في العصر الوسيط. فلقد ثبت من الأخبار التي أوردها في كتابيه «المقتبس» و«المتين»، أنه على دراية واسعة ومعرفة دقيقة بكل ما يتعلق بتاريخ الأندلس والواقع أن كتابات «ابن حيان» بالنسبة للباحثين الحديثين هي بمثابة خزانة علمية لهذا التراث الإسباني العربي بمختلف صوره وأشكاله، ولا يمكن لأي باحث أن يستغني عن قراءتها والرجوع إليها.

ومن أبناء «قرطبة» أيضاً الجراح الشهير «أبو القاسم خلف الزهراوي» (ت٤٠٣هـ-١٠١٣م) الذي ينسب إلى منية الزهراء في ضواحي غرب «قرطبة» وقد اشتهر في أوروبا باسم (Abulcasis) ويعتبر كتابه «التصريف لمن عجز عن التأليف»، موسوعة طبية مزوّدة برسوم الآلات الجراحية. ويعتبر «الزهراوي» بهذا العمل أول من جعل الجراحة علماً مستقلاً بذاته، وقائماً على أساس من العلم بالتشريح. وقد ترجم هذا الكتاب من قديم إلى اللاتينية والعبرية، كما نشر في «حيدر آباد» بالهند. كذلك أنجبت «إشبيلية» أسرة «بني زهر» التي كانت لها شهرة وزعامة ومؤلفات في عالم الطب على عهد المرابطين والموحدين، حتى صار اسم «ابن زهر» علماً معروفاً في الأوساط العلمية الأوروبية باسم Avenzoa.

أما في ميدان الفلسفة فحسبنا أن نذكر «أبا الوليد محمد بن رشد القرطبي» (ت٥٩٥هـ-١١٩٨م) الذي اشتهر بشروحه لكتب أرسطو وصارت فلسفته تدرس في جامعات أوروبا مثل جامعة «باريس»، وجامعة «بادوا» Padova في إيطاليا. وقد بلغ من حب الأوروبيين لشروحه أن تخيلوا «أرسطو» بعمامة كما يقولون، وذلك لأن كتاباته امتازت بالعمق في التخليل والقوة في الشرح والأمانة في الترجمة. وقد أطلقوا عليه اسم المعلم الأكبر ويسمونه Averroes وقد وضعه الشاعر الإيطالي دانتي في ملحمته الشعرية «الكوميديا الإلهية» في منطقة اللمبو

Limbo بين الفردوس والجحيم أي ما يقابل الأعراف في الإسلام، ووضع معه «ابن سينا» و«صلاح الدين» من المشرق، لأنهم من فضلاء الناس وتقديراً لأعمالهم. ولقد ترجم «ميخائيل سكوت» أعمال «ابن رشد» إلى اللاتينية في مدرسة «طليطلة» سنة ١٣٣٠م فكان أول من أدخل فلسفة «ابن رشد» إلى أوروبا.

وفي مجال الشعر الشعبي نذكر الشاعر الضرير «مقدم بن معافى القبري» (ت٣٩٩هـ-٩١٢م) نسبة إلى بلدة «قبرة» من أعمال «قرطبة». وهو الذي ابتكر فن الموشحات الذي يعتبر ثورة في الشعر العربي وحركة من حركات التجديد التي حررته من قواعد العروض. وبالمثل يقال بالنسبة للشاعر «أبي بكر محمد بن قزمان القرطبي» (ت٥٠٧هـ/ ١١١٤م) الذي ابتكر فن الأزجال، وصار يتغنى به في الأسواق بمساعدة بعض الآلات وجوقة من المنشدين. ويلاحظ أن الموشحة والزجل فن شعري واحد مع فارق أساسي هو أن الموشحة عربية صميمه ما عدا الجزء الأخير منها وهو الخرجة باللغة الإسبانية أو العامية الأندلسية. أما لغة الأزجال فهي كلها باللغة العامية الدارجة الجارية على ألسنة عامة الناس تتخللها كلمات وعبارات من عجمية أهل الأندلس. ويلاحظ أن هذه الأغنية الشعبية الأندلسية ذات الخرجة الأوروبية وما تطور عنها من زجل بعد ذلك، لم تؤثر في الشعر العربي فحسب بل أثرت أيضاً في الشعر الأوروبي الذي أخذ في الظهور في جنوب أوروبا في أواخر القرن الخامس الهجري، وكان ينشده المغنون الجوالون المعروفون باسم التروبادور Troubadures في جنوب فرنسا، والخوجلارس Juglares في شمال إسبانيا. كذلك يقال إن الأغاني التي كان ينشدها الإسبان في أعياد الميلاد باسم (Villancico) هي زجل أندلسي.

ونختم هذه النخبة القليلة من العلماء الأندلسيين باسم الوزير العالم الغرناطي «لسان الدين بن الخطيب» (ت٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م) الذي امتدت كتاباته ومواعظه ونصائحه إلى ملوك عصره من المسلمين والمسيحيين فكان لها تأثير كبير عليهم، وكثيراً ما استجابوا لها، فنجحت بذلك معظم أهدافه السياسية. وحسبنا أن نشير إلى النصائح التي أرسلها إلى ملك «قشتالة» بدرو الأول، والتي

أوردها باللغة الإسبانية المؤرخ الإسباني المعاصر، «لويت دي أيالا» في مدونته عن تاريخ ملوك «قشتالة».

ويضيف المؤرخ الإسباني القديم «استبان جاريباي»، في مدونته مختصر تاريخ ممالك إسبانيا أن القيم الأخلاقية التي اتسمت بها مواعظ هذا المسلم ابن الخطيب تفوق في قيمتها ما كتبه سينكا وغيره من فلاسفة الرواقيين الأقدمين.

# حركة النقل والترجمة في إسبانيا

إن التاريخ الأندلسي تاريخ عربي إسلامي يعتد بعروبته وعقيدته، وله شخصيته التي لم تلبث أن فرضت نفسها على المدونات والحوليات والملاحم الإسبانية المسيحية المعاصرة، وأثرت فيه بشكل واضح. على أن هذا العطاء الثقافي الأندلسي كان يقابله أخذ أيضاً من الثقافة المسيحية اللاتينية واليونانية.

وقد عرف عن الأندلسيين ولعهم الشديد بعلم التاريخ، إلى درجة أنهم كانوا يعتبرونه أنبل علم عندهم على حد قول «ابن سعيد المغربي». لهذا أقبلوا بدافع الحاسة التاريخية إلى تلمس الأخبار وتقصي الحقائق من مختلف مواطنها اللاتينية واليونانية القديمة، لمعرفة تاريخ وحضارة بلدهم الأندلس والأمم المجاورة لهم منذ أقدم العصور. ولهذا يلاحظ بشكل واضح أن الأخبار الدقيقة المفصلة التي أوردها المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون عن الممالك المسيحية في شمال إسبانيا وما ورائها، تدل على أنهم اطلعوا على مدونات لاتينية مسيحية قديمة فقد معظمها اليوم، أو أنهم استمدوا هذه الأخبار من أهل الذمة من النصارى واليهود المقيمين في الأندلس، والعارفين بأخبار هذه الممالك المسيحية، وهو في كلتا الحالتين أمر يدل على تأثر مؤرخينا بالثقافة اللاتينية المسيحية، فضلاً عن إمكانية معرفتهم باللغة الإسبانية التي كانت شائعة بين معاصريهم من مسلمي الأندلس، كما نص على ذلك صراحة الفقيه «ابن حزم القرطبي».

ولعل المصدر اللاتيني الأساسي الذي استمد منه المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون معلوماتهم عن تاريخ الرومان والأمم التي حكمت إسبانيا قبل الإسلام وعن صفة شبه جزيرة ليبيريا، هو كتاب «التواريخ السبعة في الرد على الوثنيين» للراهب الروماني الإسباني المولد والنشأة «بولس هروشيش» Pauls

Horosius الذي عاش في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الميلادي. ونظراً لأهمية تاريخ «هروشيش»، فقد قام بترجمته إلى العربية في عهد الخليفة، «عبد الرحمن الناصر» (٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ)، الفقيه الأندلسي قاسم بن إصبع البياني، ـ نسبة إلى بيانه من أعمال «قرطبة» ـ بالاشتراك مع قاضي النصارى ومترجمهم «الوليد بن الخيزران»، المعروف «بابن مغيث». وقد استفاد المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون من هذه الترجمة العربية.

أما عن أخبار الممالك المسيحية الإسبانية والأوروبية التي عاصرت الحكم الإسلامي في الأندلس، فهي كثيرة ومتعددة في كتابات المؤرخين والجغرافيين الأندلسيين، والتأثير الإسباني واللاتيني واضح فيها، ونجد ذلك بوضوح في روايات «العذري» و«البكري» و«الإدريسي» و«ابن حزم» و«ابن القوطية» و«ابن حيان» و«ابن الخطيب» وغيرهم. وكل هذا يعبر عن التأثير والتأثر بين هاتين الثقافتين المتجاورتين.

ولم يقتصر الأمر على الثقافة اللاتينية، بل تأثر الأندلسيون أيضاً بالثقافة اليونانية التي كانت معروفة ومألوفة لديهم، فالشاعر الزجال «سعد بن عبد ربه» (ت٣٤١هـ)، ابن عمر صاحب العقد الفريد، كان معنياً بكتابات الإغريق وعلوم الأوائل. ويشير «ابن الخطيب» إلى أن حكم اليونان كانت تدرس في الأندلس ولا سيما لأبناء الطبقة الراقية من الملوك والأمراء، وضرب أمثلة على ذلك ببعض أمراء بني الأحمر في مملكة «غرناطة». على أن أهم إنجاز علمي قامت به الأندلس في هذا المجال، هو ترجمة الكتاب اليوناني المشهور «الأدوية المفردة» الملقب بكتاب الحشائش للطبيب اليوناني «ديوسقوريدس» Dioscorides الذي عاش في القرن الأول الميلادي. فيروي المؤرخون أن الخليفة الأندلسي «عبد الرحمن الناصر»، عندم تسلم نسخة من هذا الكتاب كهدية من الإمبراطور البيزنطي «قسطنطين السابع»، سنة ٣٣٧هـ، شكل لجنة علمية لترجمته إلى العربية. وقد أثار ظهور هذه الترجمة العربية موجة من الحماس بين الأندلسيين الذي أقبلوا على دراسة الطب والنباتات الطبية، متخذين من كتاب «ديوسقوريدس» مصدراً رئيسياً لهم، وكل هذا يدل على تأثير الثقافة الإغريقية في حضارة الأندلس.

على أن الأندلس وإن كانت قد استفادت من الثقافة اللاتينية والإغريقية، إلا أنها في نفس الوقت، أعطت وأثرت في المدونات والحوليات والملاحم الإسبانية منذ وقت مبكر عقب الفتح الإسلامي، مما يدل على أن مؤلفيها أخذوا مادتهم العلمية من مصادر عربية ولا سيما من مدينة «طليطلة» الإسلامية المجاورة لحدودهم في شمال إسبانيا.

ولما سقطت «طليطلة» Toledo في يد الإسبان سنة ٤٧٨هـ ١٠٨٥م لم تفقد طابعها العربي قروناً طويلة، إذ استمر العلماء المسلمون، والمستعربون المسيحيون، واليهود يجتمعون في بلاد ملوكها المسيحيين، ويعكفون على ترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية. وكانت هذه الكتب إما ترجمات عربية لأصول يونانية وفارسية وهندية، وإما من تأليف علماء المسلمين أنفسهم بما تضمنته من إضافات جديدة إلى الفكر الإنساني. وكلا النوعين كان جديداً بالنسبة لأوروبا التي كان التعليم فيها قاصراً على الأناشيد الكنسية. ولهذا صارت مدرسة المترجمين في «طليطلة» مركزاً ثقافياً كبيراً جذب إليه العلماء والدارسين من مختلف أنحاء أوروبا ولقد برز من كبار العلماء الذين أشرفوا على هذه الحركة العلمية، أسقف مدينة طليطلة «خيمينث دي رادا» De Rada الذي يعرف أيضاً بالطليطلي (١٧٧٠ ـ ١٢٤٨م). وكان يتقن عدة لغات من بينها العربية التي ساعدتها كثيراً على الإفادة من المصادر العربية، وكتابة القسم الإسلامي من مدونته الكبيرة التي شملت تاريخ الرومان والقوط والعرب، وتسمى بحولية الطليطلي Cronica Del Toledano. ولما ولي عرش إسبانيا الملك «ألفونسو العاشر» الملقب بالعالم أو الحكيم El Sabio في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، دفع بمدرسة «طليطلة» إلى الأمام، وعمل على حمايتها ورعاية علمائها، وتشجيعهم على الاستمرار في أعمال النقل والترجمة. بل إنه شارك بنفسه في وضع الخطط التي يسيرون عليها ولقد اتسمت هذه النهضة بظاهرة جديدة تقوم على استخدام اللغة القشتالية (الإسبانية) مكان اللغة اللاتينية في تدوين المصنفات الأدبية والتاريخية والفلسفية. وبهذا الأسلوب استطاعت هذه المدرسة أن تصب كل هذه الأصول العربية واللاتينية واليونانية في قالب قشتالي. ولم يقتصر اهتمام هذا الملك العالم على مدينة «طليطلة» كمركز ثقافي، بل أنشأ إلى جانبها مراكز أخرى في مدينة «مرسية» وفي مدينة «إشبيلية» التي اتخذها قاعدة لملكه.

وتحدثنا كتب التاريخ والتراجم أن عدداً كبيراً من علماء المسلمين كانوا يجيدون اللغة الإسبانية، ويناقشون علماء المسيحية في مختلف المسائل الدينية والدنيوية. ومثال ذلك العالم الغرناطي «محمد الرقوطي» الذي عهد إليه الملك «ألفونسو العالم» تعليم المسيحيين واليهود في مدرسة «مرسية». وهناك العالم الغرناطي «عبد الله بن سهل»، في القرن السابع الهجري أيضاً، الذي كانت له شهرة كبيرة في العلوم الرياضية لدرجة أن المسيحيين في شتى نواحي إسبانيا، كانوا يرحلون إلى داره في مدينة «بياسة» Baeze لمجادلته والاستفادة من علمه. ولا يتسع المجال لحصر الأعمال العلمية التي ترجمت تحت إشراف الملك «ألفونسو العالم»، ولكن يكفي أن نشير إلى شروح أعلام الفكر الإسلامي وآرائهم الفلسفية مثل شروح «ابن رشد» على مؤلفات «أرسطو» وشروح «ابن باجة» وآراء «محيي الدين بن عربي» الصوفي المرسي، ورسالة «حي بن يقظان» لابن طفيل والمقامات العربية الأدبية التي خلفت نوعاً من القصص الإسباني المعروف بالقصة البيكارسكية Picaresca Novela أو أنشودة الجوع Epopeya Del Hambre. كذلك ثبت تاريخياً أن إحدى صور المعراج النبوي قد ترجمت من العربية إلى القشتالية والفرنسية واللاتينية بأمر من الملك «ألفونسو العالم» سنة ١٢٦٤م. لهذا كانت الفرصة سانحة أمام الشاعر الفلورنسي الإيطالي دانتي اليجيبري (١٢٦٥ ـ ١٣٢١م) لكي يصل إلى إحدى هذه الترجمات للمعراج الإسلامي. وهناك احتمال أن يكون أستاذه برونيتو لاتيني أو غيره ممن كان يترددون بين فلورنسا وبلاط ملك قشتالة، قد ساعد دانتي على ذلك بأن حمل له مسودة من الترجمة.

على أن العمل العلمي الكبير الذي أنجز تحت إشراف هذا الملك العالم، هو في الواقع مدونته التاريخية الكبرى المعروفة باسم التاريخ الأول لإسبانيا Primera Cronica generalde espana. فهذه المدونة اعتمدت على العديد من المصادر العربية المفقودة مثل تاريخ «أحمد الرازي غازي القرطبي» (ت٣٤٤هـ)، وتاريخ «ابن علقمة البلنسي» (ت٥٠٩هـ)، فحفظت لنا معلومات هامة من هذا التراث الضائع. كذلك تضمنت هذه المدونة عدداً من الملاحم الإسبانية التي تتصل أحداثها بتاريخ المسلمين في الأندلس ومن أهمها: ملحمة أبناء لارا السبعة Los Infantes de Lara التي تتصل أحداثها بعصر الحاجب

«المنصور بن أبي عامر»، وملحمة زايدة المسلمة Lamora zaida زوجة المأمون بن المعتمد بن عباد الذي قتله المرابطون في «قرطبة»، وملحمة الفارس الإسباني المغامر السيد «القمبيطور» أي المبارز El cid campeador الذي استولى على «بلنسية» في أواخر القرن الخامس الهجري (١١م). وقد لاحظ المؤرخون أن هذه الملاحم Epicas، تنبض بالعناصر العربية، وأن أحداثها، وإن كانت تتسم بطابع قصصي، إلا أنها تتصل اتصالاً وثيقاً بحياة المسلمين في الأندلس، كذلك لاحظوا أنها كانت في الأصل تتردد على ألسنة الناس على شكل أشعار باللغة الرومانية أو اللاتينية العامية، فجاء الملك «ألفونسو العالم» ودونها في حولتيه في قالب نثري باللغة القشتالية.

وهكذا نرى مما تقدم أن الحولية التاريخية الكبرى للملك «ألفونسو العالم» هي مثل رائع لذلك الدور الذي قامت به الأندلس، كجسر حضاري، امتزجت فيه حضارتا الشرق والغرب.

# طارق بن زياد
# والإسلام في الأندلس

امتطى أبو عبد اللّه الصغير صهوة فرسه مولياً ظهره لقصر الحمراء الشهير في يوم بارد من أيام كانون الثاني ١٤٩٢م. علت وجه أبي عبد اللّه سحابة كثيرة من الحزن وخيم على الركب الصغير صمت طويل ينبئ عما يكتنف قلوب هذا الركب من غم شديد. سار أبو عبد اللّه تتبعه أمه وبعض من أهله وصحبه في ذلك الطريق الملتوي الطويل الذي يمر بين شعاب غرناطة وجبالها متجهاً إلى منفاه ليفارق غرناطة إلى الأبد.

كانت الشمس قد آذنت بالغروب وأخذت تعكس بأشعتها الذهبية على جدران قصر الحمراء لتكسي حجارته بصبغة حمراء باهتة فتضفي عليه سحراً وجاذبية.

توقف أبو عبد اللّه قليلاً عند تلة صغيرة تُشرف على وادي غرناطة المكتظ ببيوته البيضاء ليلقي نظرة وداع أخيرة على مدينته الحزينة التي يتوسطها قصره الشهير.. تسارعت في ذهن أبي عبد اللّه ذكريات الصبا وأيامه الجميلة التي قضاها في صالات وأروقة هذا القصر وفي حدائقه الغناء الواسعة. كان أبو عبد اللّه يعرف أن تلك الوقفة سوف تكون الأخيرة وإن تلك النظرة ستكون النهائية إذ ليس يأمل أبداً بأن يرى مدينته المحبوبة ثانية، تمنى أبو عبد اللّه لو تطول تلك الوقفة لعله يستطيع أن يملأ عينيه بتلك المناظر الساحرة التي تثير في نفسه ذكريات الصبا، إلّا أن الحزن الذي يعتصر قلبه سرعان ما استحوذ على عينيه وإذا بهما تنهمران دمعاً ساخناً حاول جاهداً أن يخفيه عن نظرات أمه الحادة التي عاجلته بلسانها الذرب:

إبك مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال

وهكذا غادر أبو عبد اللّه آخر سلاطين بني الأحمر غرناطة تاركاً أهلها

المسلمين لرحمة الإسبان الذي لم تعرف الرحمة يوماً إلى قلوبهم سبيلاً، ولتبدأ مرحلة بائسة طويلة مليئة بالأحزان والدموع، متسربلة بالدماء. . وليسدل الستار أخيراً على الإسلام في الأندلس بعد بضعة قرون من السنين.

## التركيبة الاجتماعية في الأندلس

كانت شبه الجزيرة الإيبرية «إسبانيا» تحت حكم الملوك القوط الذين هاجروا إليها من داخل أوروبا وقد عانى الإسبان كثيراً من ظلمهم وسوء إدارتهم وقد كانوا يتحينون الفرص للتخلص منهم.

حانت الفرصة عندما جاء ملك القوط لذريق إلى الحكم بعد أن اغتصب الحكم من الملك الشرعي واغتياله. فقد طلب بعض الإسبان النجدة من موسى بن نصير الذي أرسل قائداً شاباً مع جيش صغير من المسلمين. كان هذا القائد هو طارق بن زياد التي وطأت أقدامه هو وجيشه أرض الأندلس في شهر رجب ٩٢هـ «٧١١م» عند المضيق المسمى باسمه لهذا اليوم «جبل طارق».

استطاع المسلمون من هزيمة لذريق وقتله وتشتيت جيشه بصورة تامة وبهذا بدأ الفتح الإسلامي لهذه البلاد وبدأ حقبة جديدة في تاريخ إسبانيا. لقد قابل الإسبان دخول الجيش الإسلامي بارتياح وترحيب ظاهرين إذ هم لاقوا الأمرين من ظلم وتعسف ملوك القوط السابقين. ولم تمض فترة إلّا وكان المسلمون يسيطرون على معظم البلاد الإسبانية واخترقوا جبال البايرينز إلى جنوب فرنسا إلّا أنهم خسروا معركة بلاط الشهداء مع شارل مارتل ملك الإفرنج وبهذا توقف الزحف الإسلامي إلى قلب أوروبا بسبب فتنة عمياء لاقتسام الغنائم بين العرب والبربر حيث قتل في تلك المعركة القائد المسلم عبد الرحمن الغافقي عندما اضطرب الجيش الإسلامي وتقهقر أمام ضربات الإفرنج الذين استعادوا الهجوم واستغلوا الفرصة أحسن استغلال.

لم تكن سيطرة المسلمين على إسبانيا كاملة تماماً إذ بقيت جيوب صغيرة للإسبان في الشمال والشمال الغربي في المناطق الجبلية الوعرة كانوا ينفذون منها للهجوم والتخريب. لم يدر في خلد المسلمين الفاتحين أن هذه الجيوب الصغيرة سوف تكون نواة لممالك الإسبان مستقبلاً لينطلقوا منها في التهام ممالك الإسلام في إسبانيا الواحدة تلو الأخرى عندما ضعف المسلمون ولم

يكن طموح الإسبان لينتهي إلّا بطرد المسلمين بصورة نهائية كما سوف نرى.

على مرّ السنين دخل الكثير من الإسبان في الإسلام وكثر التزاوج بين الفاتحين والإسبان بحيث نشأ جيل كبير من المولودين الذين يحملون في عروقهم دماء إسبانية إضافة إلى الدماء العربية والبربرية وقد ارتقى الكثير منهم في مناصب الدولة العالية مثل ابن حزم الأندلسي الذي اعتنق جده الإسلام.

لقد نشأت تركيبة اجتماعية وعرقية خاصة في الأندلس كانت سبباً في نشوء الفتن والاضطرابات التي كانت تؤججها سوء الإدارة أحياناً. فكان هناك العرب والبربر والإسبان، والعرب انقسموا بدورهم إلى قيسية ويمانية مع ما رافقها من فتن كبيرة وكان هناك البربر والتنافس التقليدي بينهم وبين العرب وكان الإسبان بقسميهم المسلم والمسيحي إضافة إلى المهجنين.

كانت هذه التركيبة العرقية والاجتماعية نواة فيما بعد لممالك الطوائف المتناصرة والتي انتهت بفنائها جميعاً.

## الحكم الأموي المباشر في الأندلس

دخلت الأندلس المرحلة الثانية من تاريخها السياسي عندما فوّضت أركان الخلافة على بني أمية في دمشق حيث هزم آخر خلفائهم مروان بن محمد أمام جيوش العباسيين في معركة الزاب سنة ١٣٢هـ.

وولى هائماً على وجهه وكأن الأرض لا تسع لهربه بما وسعت ليلقى حتفه على يد العباسيين ولتبدأ مرحلة دموية كان الأمويون وقودها حيث أذاق بنو العباس الأمويين حر الحديد وبأس السيف وجرعوهم مرارة الذل والهوان وشردوهم وراء كل حجر ومدر.. نجا من تلك المذابح شاب أموي اسمه عبد الرحمن استطاع عبور الفرات وهرب إلى شمال إفريقيا، وبمساعدة أخواله البربر استطاع العبور إلى الأندلس. استطاع عبد الرحمن الملقب «الداخل» من تأليف القبائل اليمانية التي كانت ناقمة على هيمنة القبائل القيسية وبمساعدة البربر استطاع أن يخضع الأندلس لسيطرته وأن يبايعه أهل الأندلس أميراً عليها سنة ١٣٨هـ «٧٥٥م». حاول الخليفة أبو جعفر المنصور عبثاً إخضاع عبد الرحمن الداخل حيث استطاع عبد الرحمن هذا (الذي لقبه المنصور بلقب صقر

قريش)، أن يهزم جيش المنصور، وأن يرد برؤوس قادة الجيش إلى المنصور لتصله إلى مكة أثناء موسم الحج.

اتخذ عبد الرحمن قرطبة عاصمة له وبدأ ببناء وتوسيع مسجدها الشهير فدخلت قرطبة مرحلة مزدهرة أصبحت معها فيما بعد محط الأنظار ومهد الحضارة.

استمرت السلالة الأموية في حكم الأندلس حيث بلغت أوج حكمها في زمن عبد الرحمن الثالث الذي دام حكمه لأكثر من خمسين عاماً. وامتد سلطانه إلى شمال إفريقيا. وليقهر الإسبان وليجعل من إسبانيا قبلة الأمصار وعروس أوروبا ـ إليها تشدّ الرحال لطلب العلم والأدب والفنون ـ حتى صارت اللغة العربية هي لغة العلم حتى في أوروبا.

بدأ حكم عبد الرحمن الثالث في سنة ٣٠٠هـ وانتهى عام ٣٥٠هـ واستطاع أن يخلع على نفسه لقب أمير المؤمنين وسمى نفسه الناصر لدين اللّه وبهذا أصبحت دار الإسلام يحكمها ثلاثة خلفاء «الأموي والعباسي والفاطمي» في آن واحد.

وقد توسعت قرطبة في عصره ليبلغ عدد سكانها النصف مليون تقريباً، وقد بدأ الناصر ببناء مدينة الزهراء التي استمر بناؤها ١٧ عاماً ليجعلها مدينته المفضلة وهي تبعد عن قرطبة عدة أميال ولكن لم يمهل الزمن مدينة الزهراء هذه طويلاً إذ قد دمرت بعد خمسين سنة تقريباً في فتنة البربر الشهيرة.

توفي الخليفة الناصر سنة ٣٥٠هـ فخلفه ولده الحكم الثاني الذي حكم لغاية سنة ٣٦٦هـ والذي اشتهر بحبه للعدل والعلم والحكمة. وقد بلغت جامعة قرطبة في عصره منزلة علمية عالية جعلتها في مصاف جامعة الأزهر في القاهرة والمدرسة النظامية في بغداد.

لما حضرت الحكم الوفاة نظر وهو على فراش الموت إلى ولده الصغير نظرة أسى وحزن وكأنه علم بما سيكتنف أرض الأندلس من فتن مضطربة بعده. كان ولده لا يجاوز أحد عشر عاماً فأوصى له بالخلافة ولقبه «هشام الثاني» وجعل عليه وصياً وزيره الحاجب محمد بن أبي عامر الملقب بالمنصور والذي

لم يكن عند حسن ظن سيده، إذ سرعان ما استحوذ على كل مراكز القوى وتخلص من منافسيه الواحد تلو الآخر بالقتل والاغتيال وقلص من نفوذ هشام الثاني الذي جعله لا يغادر القصر وصيّره خليفة بغير سلطان.

جمع المنصور هذا قدرة إدارية وكفاءة عسكرية عالية يخالطها الكثير من الحنكة السياسية وميل إلى البطش والتنكيل..

خاض المنصور مع النصارى الإسبان عدة معارك أثبت فيها نفسه شبحاً مرعباً للإسبان تتحدث به كتبهم لحد الآن وفي إحدى المعارك استولى على كنيسة «سنتياغو» وجعل الأسرى الإسبان يحملون الأجراس على ظهورهم لمسافة ٤٠٠ ميلاً إلى قرطبة..

وبموت الحاجب المنصور سنة ١٠٠٢م بدأ الهبوط السريع للحكم الإسلامي في الأندلس فلم يمض إلّا وقت قصير حتى اندلعت فتنة البربر الذين دمروا مدينة «الزهراء» رائعة المدن في الأندلس وتعاقب على الخلافة الأموية خلفاء ضعفاء لم يتركوا أثراً يذكر إلّا شيئاً أدبياً خالداً ألا وهو غرام الشاعر ابن زيدون «بالولادة» بنت الخليفة المستكفي التي عافت حياة الحريم وكانت على درجة كبيرة من الأدب والعلم فأغرم بها الشاعر ابن زيدون الذي انتهى أمره معها بالفراق فخلدها بقصيدته الرائعة:

| | |
|---|---|
| أضحى التنائي بديلاً من تدانينا | وناب عن طيب لقيانا تجافينا |
| بنتم وبنّا فما ابتلت جوانحنا | شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا |
| بالأمس كنا وما يخشى تفرقُنا | والآن نحن ما يرجى تلاقينا |
| يا جنّة الخلد بدلنا بسلسلها | والكوثر العذب زقوماً وغسلينا |

## ملوك الطوائف

بعد إلغاء الخلافة الأموية في قرطبة انفرط عقد دولة الأندلس الإسلامية وعادت الصراعات والأطماع القديمة إلى الظهور وانقسمت الدولة إلى عدد كبير من الممالك الصغيرة التي قد لا يتجاوز الواحدة منها مساحة المدينة الواحدة وما حواليها، وانحسرت عظمة قرطبة وصارت تابعة فيما بعد لسلطان إشبيلية التي ملكها بنو عاد.. كانت دويلات الطوائف هذه متحاربة فيما بينها لا يجمعها جامع من دين أو عصبية أو مصلحة مشتركة فكان من المستحيل على

مثل هذه الدويلات الاتحاد ضد خطر الإسبان الزاحف من الشمال. ولكن على الرغم من التفكك الإداري والعسكري الذي أصاب الأندلس فإن هذه الفترة كانت من أخصب فترات الحضارة الإسلامية في تلك الربوع، فقد ازدهر الأدب والفن وترعرت الفلسفة ونشطت حركة الترجمة فلا بد أن نذكر أن ابن رشد وابن طفيل وعبد الله بن ميمون والمعتمد بن عباد كانوا أبناء عصر الطوائف.. كان الكثير من ملوكها على قدر كبير من الأدب والعلم كالشاعر ابن عباد صاحب إشبيلية والمظفر بن أفطاس الذي ألّف كتاباً في التاريخ بخمسين جزءاً سماه كتاب المظفري!

على أن ازدهار ممالك الطوائف لم يمنع سقوطها تجاه زحف الإسبان فكانت تلك الممالك كزهور الربيع الطرية التي هبت عليها الحصباء فصارت كالهشيم.

لقد تناسى أولئك الحكام المتصارعون التحذير القرآني ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٤٦] وغاب عنهم إن من من نام لم ينم عنه فكان أملهم الوحيد تجاه قوة الإسبان في الشمال «مملكة قشتالة» هو الاستعانة بإخوانهم في الشمال الإفريقي.

كانت قد نشأت في المغرب العربي دولة قوية ناشئة من البربر الذين أسلموا حديثاً وسموا أنفسهم بالمرابطين وكان ملكهم يوسف بن تاشفين الذي عبر المضيق المائي الفاصل لنجدة إخوانه في الأندلس وألحق بالإسبان هزيمة منكرة في معركة زلاقة الشهيرة حيث لم يعد من جيش الإسبان البالغ ٦٠ ألفاً سوى بضع مئات لاذوا بالفرار مع ملكهم الفونسو السادس. وتنفست ممالك الطوائف الصعداء ولو لفترة قصيرة.. كانت إشبيلية يحكمها المعتمد بن عباد الشاعر المشهور والذي دبّ الخلاف بينه وبين يوسف بن تاشفين فنفاه يوسف هذا إلى المغرب في مدينة «أغمات» التي مات فيها فقيراً مأسوراً.

وقد رثى نفسه بقصيدة مؤثرة مطلعها:

فيما مضى كنت بالأيام مسرورا ... فجاء العيد في أغمات مأسورا
ترى بناتك في الأطمار عارية ... يطأن في الدين ما يملكن قطميرا

رجع يوسف بن تاشفين إلى الشمال الإفريقي وتوفي هناك فدب النزاع بين

سلالته وسلالة أخرى أنشأت لها دولة سميت بدولة الموحدين والذين كانت لهم الغلبة أخيراً واشتهر من ملوكهم السلطان يعقوب أبو يوسف الذي عبر إلى الأندلس بعد أن سمع بالتهديد الإسباني الجديد لنصارى قشتالة فاشتبك مع الإسبان في معركة دامية «معركة الأركوس» حيث خسر الإسبان معظم جيشهم وقد حاصر أبو يعقوب مدينة طليطلة حصاراً طويلاً فخرجت ملكة الإسبان وبناتها إلى السلطان ترجو منه فك الحصار وقد تحرك قلب أبي يعقوب لهذه الجرأة وملأت قلبه الأريحية فأرجعها معززة مكرمة ومحملة بالهدايا والنفائس. . وكان السلطان يعقوب هذا هو الذي بنى المأذنة وبرج المراقبة المسمى الجيرالدا «Giraldo» والذي ما زال يطل شامخاً في سماء إشبيلية. كان هذا السلطان يحترم العلماء والمفكرين وقد ضم بلاطة ابن رشد وابن طفيل وغيرهم من الأطباء مثل ابن زهر وابن باجة.

عزم السلطان يعقوب على الرحيل إلى الشمال الإفريقي حيث قرر مغادرة الأندلس تاركاً طوائفها لقسوة القدر وفتك الإسبان الذي سرعان ما أعادوا تنظيم جيوشهم وزادوا من عدتهم وعديدهم بينما زاد التناحر والتحارب ممالك الطوائف ضعفاً على ضعف. . ولم يكن هناك عبر الساحل الإفريقي أبو يوسف يعقوب ليهب لنجدتهم فأصبحوا أمام مصيرهم المحتوم الذين هم سارعوا في تقريب ساعته إذ لا يعدم أن يرى المستطلع لتاريخ هذه الفترة استغانة المسلمين بالإسبان على إخوانهم المسلمين وبالتالي صار الإسبان يضربون بعض هذه الممالك ببعضها حتى إذا أبادوا أحدها التفتوا إلى الأخرى فتساقطت هذه الدويلات تباعاً، فسقطت قرطبة وبلقيسة ومرسية وحوصرت إشبيلية لمدة ١٥ شهراً من قبل الإسبان وكان ممن اشترك في الحصار ابن الأحمر مؤسس دولة بني الأحمر في غرناطة وسيأتي ذلك اليوم الذي يلتهم الإسبان مملكته ولو بعد حين ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣] وأخيراً فتحت إشبيلية أبوابها للإسبان فبدأت المجازر التي يعجز القلم عن وصفها ولم يستثنوا حتى الأطفال الرضع أو النساء أو الشيوخ. . وقد رثى الشعراء سقوط إشبيلية رثاء مبكياً كما في هذه الأبيات للشاعر موسى بن هارون:

فكم أسارى غدت في القيد موثقةً ... تشكو من الذل أقداماً لها حُطما
وكم صريع رضيع ظل مختطفاً ... عن أمه فهو بالأمواج قد قُطما

يدعو الوليد أباه وهو في شغل عن الجواب بدمع سال وانسجما
فكم ترى والهاً فيهم ووالهةً لا يرجع الطرف إن حاولته الكلما
في كل حين ترى صرعي مجدّلةً وآخرين أسارى خطبهم عظما

ولا بد أن نذكر هنا أن السقوط المتسارع لممالك الطوائف هو نتيجة لمعركة العقاب التي دارت رحاها في سنة ٦٠٩هـ «١٢١٢م» بين الإسبان ومن ساندهم من الصليبيين العائدين من أرض الشام بعد طردهم من قبل صلاح الدين، وبين جيش السلطان محمد بن يعقوب أبي يوسف الذي عبر إلى الأندلس لتأديب الإسبان إلّا أن تعسفه وسوء إدارته أدت إلى انفضاض مسلمي الأندلس عنه عند أول هجوم للإسبان في تلك المعركة فمنهم من هرب ومنهم من انضم إلى الإسبان.

وكانت هزيمة ساحقة للمسلمين كما وأصبحت بالتالي بداية النهاية لدويلات الطوائف كما ذكرناه آنفاً.. ومرة أخرى تناسى المسلمون تعليم قرآنهم فكانت النتيجة وبالاً عليهم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال: ١٥، ١٦].

# مملكة غرناطة
# وسلالة بني الأحمر

في تلك المرحلة الدامية العصيبة التي مرت بها دويلات الطوائف ظهر متنافسان قويان رئيسان هما محمد بن الأحمر وابن هود وكان قد بلغ العداء بينهما أشده بحيث استعان ابن الأحمر على خصمه بالإسبان وتنازل ابن هود بدوره عن ثلاثين من قلاع المسلمين للإسبان رغبة في مساندة الإسبان له ضد ابن الأحمر. كان حظ ابن هود أقل من حظ خصمه إذا استطاع أن يهزمه الإسبان ويموت أخيراً بالسم بينما استطاع ابن الأحمر هذا الذي اشترك في حصار إشبيلية، من بسط سلطانه ودعمه في جنوب الأندلس فاستولى على غرناطة عاصمة لملكه، التي قد تضخم عدد سكانها فبلغوا ٢٠٠ ألفاً بسبب نزح الهاربين إليها من مجازر الإسبان وكانت تقع في موقع حصين في واد فسيح تحيد به الجبال وتتوفر فيها المياه العذبة وبسبب جهود الغرناطيين وخبرتهم تحول ذلك الوادي إلى حدائق غنّاء تنتج الغذاء الوفير مما جعلها موضع حسد من قبل النصارى الإسبان يتحينون الفرص للإيقاع بها وابتلاعها كما سنرى فيما بعد. كان أسلاف ابن الأحمر ينتمون إلى سلالة بني نصر وهم من الأنصار من الخزرج بالذات وكان أسلافه ممن خدموا السلالة الأموية في غرناطة وأبلوا بلاء حسناً في الحروب.. بدأ محمد بن الأحمر ببناء قصره الحمراء على قمة تل كان موقعاً لحامية عسكرية مسلمة «القصبة» فجلب إلى هذا الموقع المياه بواسطة قنوات عميقة داخل الأرض من الجبال المحيطة واتسع البناء ليستطيع ضم أربعين ألفاً. وقد تعاقب سلاطين بني الأحمر على عمارة قصر الحمراء وتوسعته والعناية بحدائقه البهيجة حتى صار أعجوبة في الفن المعماري لهذا اليوم أصبحت غرناطة آخر معقل للإسلام في الأندلس وازدهرت فيها العلوم والفنون والآداب والفلسفة وكان سلاطينها يشجعون هذه النهضة ويرعونها

ويجودون عليها بالغالي والنفيس. . وازدهرت الزراعة عبر موانئها الجنوبية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط ففيها عاش لسان الدين بن الخطيب وقضى ابن خلدون بعض الوقت من عمره في بلاد بني الأحمر. . واستطاعت غرناطة أن تصمد لقرنين آخرين من الزمان حتى سقوطها سنة ١٤٩٢م.

## سقوط غرناطة

إن صمود غرناطة لهذا الزمن الطويل يرجع لعدة أسباب منها منعة غرناطة وحنكة سلاطين بني الأحمر السياسية وصراعات الإسبان الداخلية.

كانت ممالك الإسبان الرئيسة هي قشتالة والأراكون و«ليون» التي ضمت إلى الأراكون. إنّه لمن سوء طالع غرناطة أن يتم التصالح بين قشتالة والأراكون بزواج ملكة قشتالة إيزابيلا من ملك الأراكون فرديناند، وبهذا توحدت ممالك الإسبان وبرزت إسبانيا المسيحية كدولة فتية قوية كان هدفاً مشتركاً بينهما أن يقضي فرديناند وإيزابيلا على غرناطة بصورة نهائية. . كانت إيزابيلا متعصبة لمسيحيتها إلى حد الهوس وكانت ترى أن رسالتها أن تطهر أرض إسبانيا من الكفرة في نظرها وكان يساعدها على ذلك صرامة شديدة وقلب قاسي لا يلين. أما زوجها فرديناند فهو طبعاً لا يرى ضيراً أن يكتب عهداً بيمنيه لتنقضها شماله.

وبينما كان البلاط الإسباني سائراً في طريق الوحدة كان بلاط بني الأحمر مسرحاً للفتن والدسائس والمؤامرات التي أدت إلى أن يقتل بعضهم البعض.

اقتربت نهاية غرناطة عندما اعتلى السلطان علي أبو الحسن ابن الأحمر عرش غرناطة ـ كان أبو الحسن شجاعاً مقداماً ولكن يخالط شجاعته مزاج حاد وطبيعة نارية تبلغ درجة التهور والطيش غير عابئ للعواقب ـ كان أبوه قد شخّص ضعف غرناطة أمام الإسبان فآثر السلامة ورضي أن يدفع لملك الإسبان ضريبة سنوية لإرضائهم. . أما أبو الحسن هذا فعندما طولب بالضريبة أجاب الإسبان أن ليس عنده إلّا السيف وأعقب كلامه بالفعل فهجم على حامية إسبانية قريبة واحتلها وطرد منها الإسبان.

وجد فرديناند وإيزابيلا فرصتهم الذهبية لتحقيق حلم أسلافهم بالقضاء على هذا المعقل الحصين للإسلام.

وقد ساعدهم على ذلك حصول فتنة كبيرة في البلاط الملكي في غرناطة إذ أن أبا الحسن قد تزوج من ابنة عمه عائشة أو «فاطمة» التي ولدت له ابنه أبو عبد اللّه الملقب «الصغير» وكان لأبي الحسن زوجة إسبانية جميلة كانت المفضلة عنده حيث ولدت له طفلين وأراد أن يجعل الملك لهما من بعده.. حدثت الفتنة داخل القصر بين أبي عبد اللّه الصغير مدفوعاً من أمه عائشة وبين أبيه كان للإسبان يد فيها.. ويلف الغموض أحداث هذه الفترة إلّا أن المعروف أن أبا الحسن ترك غرناطة متجهاً إلى المرية عند أخيه الملقب «الزغال» لشجاعته وبأسه. وهناك توفي أبو الحسن فاندلعت الفتنة بين الزغال وابن أخيه أبي عبد اللّه الصغير انتهت بأن يقتسم الاثنان المملكة بينهما فيكون للزغال مالقة والمرية وجنوب غرناطة ويكون الباقي لأبي عبد اللّه.

قرر فرديناند تصفية الخصمين كلاً على حدة، وكان أبو عبد اللّه قد ارتبط بمعاهدة صداقة مع فرديناند.. فبعث فرديناند جيشاً كبيراً لمحاصرة مالقة لعدة شهور. أصابت المجاعة أهلها ببلاء عظيم واستبسل سكانها في الدفاع عن مدينتهم.. وقد أرسل الزغال جيشاً من المرية لنجدة مالقة ولكن قطعت الطريق عليه قوة عسكرية أرسلها أبو عبد اللّه.. انتصاراً للإسبان!! ولم يجد هذا الخسيس ضيراً أن يرسل رسالة تهنئة إلى فرديناند بسقوط مالقة فيما بعد.

أخيراً استسلمت مالقة للإسبان وبدأت المجازر التي راح ضحيتها الطفل والشيخ والمرأة على حد سواء.. لقد سجل الإسبان صفحة سوداء أخرى في تاريخهم في مالقة حفظتها كتب التاريخ.

أبدى «الزغال» شجاعة نادرة في مناوراته مع الإسبان وحقق انتصارات لا بأس بها عليهم ولكن الكفة رجحت أخيراً لصالحهم فلم يجد بُداً من الاستسلام فأعطي بعض المال ونفي إلى أرض وهبها له فرديناند.

ولكن بقاءه في الأندلس لم يعد مرغوباً فيه فأُمر أخيراً بالرحيل. فعبر إلى فاس في مراكش وهناك اتهم بالخيانة والجبن وصودرت أمواله وفقأت عيناه وسجن ثم أخرج من السجن ليبدأ بالتسول في شوارع فاس وليموت البطل أخيراً كسير القلب مجروح الفؤاد على الرغم من استماتته في الدفاع عن معقل الإسلام الأخير في الأندلس.

ودارت الأيام على أبي عبد اللّه. . فلم يمض إلّا وقت قصير حتى طلب فرديناند من أبي عبد اللّه تسليم غرناطة فوراً. . أسقط في يد أبي عبد اللّه ولم يجد الغرناطيون بداً من الدفاع عن مدينتهم والاستماتة في سبيلها.

وهكذا فقد بدأ حصار غرناطة في خريف سنة ١٤٩١م بعد أن سبقه تدمير الحقول والمروج والبساتين في وديان غرناطة الخضراء. استمر الحصار بضعة شهور كانت تكثر خلاله المناوشات والمبارزات بين فرسان المسلمين والإسبان وكانت الغلبة في معظمها لفرسان الإسلام حتى خشي فرديناند على فرسانه من الإبادة فأمر بإيقاف المبارزة بين الطرفين وضيّق بدلها الحصار حتى تفشت المجاعة داخل غرناطة.

وهناك بدأ أبو عبد اللّه الصغير مفاوضاته سراً لتسليم غرناطة وفك الحصار عنها على شروط عديدة.

وفي صباح يوم الثالث من كانون الثاني ١٤٩٢م. استيقظ الإسبانيون على إطلاقات المدافع من قصر غرناطة وإذا بهم يرون الصليب منتصباً على قصبته فها قد تم الاستسلام وأعطيت المفاتيح لفرديناند وإيزابيلا وبهذا انقضى عهد الإسلام المزدهر في تلك البلاد، حيث لم يستطع بعدها المسلمون من إعادة عرشهم في تلك البلاد. وسيطر الدين المسيحي بعد ذلك، خاصة وأن المملكة إيزابيلا كانت متعصبةً جداً لمسيحيتها.

كانت شروط تسليم غرناطة للإسبان تقضي للمسلمين بحرية الدين واللغة. كما أن للمسلمين الحق في المحافظة على أموالهم وتقاليدهم وإن تحسم قضاياهم من قبل قضاة مسلمين. وكذلك السماح للمؤذنين بالأذان في أوقات الصلاة. ويُمنع المسيحيون من دخول بيوت المسلمين من غير إذن. الخ، لقد استنام الغرناطيون لهذه العهود والمواثيق التي قطعها الإسبان لهم والتي كانت مخدعة الصبي عن اللبن أو الفطام. . فلم يعرف الإسبان أبداً أنهم حافظوا على عهد سابق أبداً. كان هناك صوت رافض لهذه الشروط لفارس من فرسان غرناطة الشجعان واسمه موسى الذي خطب في قومه قبل الاستسلام محذراً إياهم من مغبة الاستنامة لوعود الإسبان ولما لم يجد أُذناً صاغية غادر قومه قائلاً: «إنّه يفضل الموت بالسيف على أن يموت صبراً بيد لئام الإسبان أو

يُجرّع الذل والهوان على يد الشرك». وعندما خرج موسى من غرناطة اعترضته قوة من فرسان الإسبان فدارت معركة غير متكافئة قتل فيها عدة منهم وسقط أخيراً من على فرسه مثخناً بالجراح فقاتل بسيفه قائماً على ركبتيه ولما تكاثر الإسبان عليه ليفتكوا به رمى بنفسه من علو إلى النهر ولما كان مثقلاً بالدروع غاص موسى إلى قاع النهر ولم يعثر له أثر فضرب هذا الفارس المثل الأعلى في الإباء والعزة والكرامة والشجاعة.

وقد صدق حدس موسى رحمه الله فلم يمض وقت قصير إلّا والعهود تنكث الواحد تلو الآخر من قبل الإسبان حتى لم يبق منها شيء يذكر وإذا بالمرحلة العصيبة الأخرى تمر على مسلمي الأندلس لتسدل الخاتمة على هذا التاريخ إلى يومنا هذا.

## مرحلة ما بعد السقوط

بدأ التعسف والاضطهاد مباشرة بعد سقوط غرناطة وبدأت حملات التنصير الإجباري للمسلمين. ولكن الإسبان لاحظوا أن هؤلاء غالباً ما كانوا يظهرون المسيحية ويبطنون الإسلام وبدأت محاكم التفتيش بمحاكمة وحرق من يشتبه فيه التنصير الظاهري فراح الكثير من ضحايا هذه المحاكم التي أمرت بإنشائها الملكة إيزابيلا لتلتهم اليهود والمسلمين. وفيما بعد حتى النصارى الذين يشك في ولائهم المطلق للكنيسة الكاثوليكية فاقترنت إيزابيلا بمحاكم التفتيش هذه في التاريخ فكانت سنّة سيئة عليها وزرها ووزر من عمل بها..

إيزابيلا هذه التي سمّاها شكسبير شاعر الإنكليز «ملكة ملكات الأرض» وهي نفسها التي يبحث الفاتيكان الآن في شأن رفعها إلى مستوى القديسة.. هذه هي التي كانت سبباً في إبادة شعبين مسلمين، المسلم في الأندلس والهنود الحمر في أميركا التي عبر إليها كولومبس مبحراً من إشبيلية بأموال الغنائم التي غنمها الإسبان من غرناطة وبأمر من إيزابيلا وزوجها فرديناند..

في سنة ١٥٠٢م صدر مرسوم ملكي يقضي بأن يُمنح المسلمون شهرين فقط لا غير لاعتناق المسيحية أو الطرد النهائي فشهدت ساحات غرناطة إحراق ثمانين ألفاً من الكتب العربية. وتمّ التنصير الإجباري للمسلمين من نزلاء حي البيازين المقابل لقصر الحمراء.

وفي سنة ١٥٦٦م صدر مرسوم ملكي آخر يقضي بمصادرة الكتب العربية ومنع التكلم بالعربية ومنع الحجاب بالنسبة للمسلمات وغلق الحمامات العامة ومنع الزي الإسلامي والاستعاضة عنه بالزي الإسباني وتغيير الأسماء العربية إلى الإسبانية.

وكان هذا فوق طاقة تحمل المسلمين فاندلعت ثورة عارمة في غرناطة وفي منطقة جبال البشارات التي التجأ إليها الألوف من المسلمين.

استمرت هذه الثورة لثلاث سنوات متتالية.. ارتكب فيها الإسبان أبشع الجرائم فأحرقت الكهوف على ساكنيها في جبال البشارات وقتل فيها الأطفال والشيوخ والنساء.. كان مدبر هذه الحملة على هؤلاء المقهورين البائسين هو (الأمير دون جون) الابن اللقيط للإمبراطور كارلوس الخامس، فلم تهز قلب هذا اللقيط أنات الأطفال والنساء وهم يقتلون ويحرقون أمام ناظريه بالألوف، فنال هذا اللقيط مكانه بجدارة في التاريخ بين سفاحي ومجرمي البشرية الجديرين بلعنة اللّه ولعنة اللاعنين!

| | |
|---|---|
| تبكي الحنيفية البيضاء من أسف | كما بكى لفراق الألف هيمانُ |
| على ديار من الإسلام خالية | قد أقفرت ولها بالكفر عمرانُ |
| حتى المحاريب تبكي وهي جامدة | حتى المنابر ترثي وهي عيدانُ |
| يا غافلاً وله في الدهر موعظة | إن كنت في سنة فالدهر يقظانُ |
| تلك المصيبة أنست ما تقدمها | وما لها من طوال الدهر نسيانُ |
| يا راكبين عتاق الخيل ضامرةً | كأنها في مجال السبق عُقبانُ |
| وحاملين سيوف الهند مرهفةً | كأنها في ظلام النقع نيرانُ |
| وراتعين وراء البحر في دعة | لهم بأوطانهم عزٌ وسلطانُ |

(أبو البقاء الرندي)

بالغ المسلمون في كتمان دينهم عن الإسبان، وقد أطلق عليهم الإسبان (المورسيكيون) أي النصارى الذين أبطنوا الإسلام فكانت الوفود السرية تتوالى على المسلمين من شمال إفريقيا ناقلة الفتاوى والتشريعات التي تعلمهم كيف يحافظون على دينهم في ظل هذا الكبت والكتمان.. إلّا أن ذلك لم يكن ليستمر طويلاً.. ففي سنة ١٦١٢م كانت خاتمة الإسلام في الأندلس حيث أجبر المسلمون على الرحيل ومغادرة البلاد. فغادر الكثير منهم ومات الكثير منهم

في الطريق إلى شمال إفريقيا وحمل بعضهم مفاتيح بيوتهم في غرناطة على أمل العودة يوماً. واستقر الكثير منهم في فاس والرباط وغيرها من مدن الشمال الإفريقي.. كانت هذه الهجرة هي الأخيرة وقد قدر عدد النازحين بين نصف مليون والمليون وبعضهم يصل بالعدد إلى ٣ ملايين وهكذا أسدل الستار على شعب مسلم عظيم عمّر أرض إسبانيا وأرسى فيها حضارة عظيمة كانت محط أنظار العالم في القرون الوسطى.

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٦].

ولم تنج إسبانيا من العدالة الإلهية فإذا إمبراطوريتها التي امتدت في أوروبا والأمريكيتين تنهار سريعاً وتحولت إسبانيا إلى أرض جدباء وسارعت الخطى إلى عصور الظلام بينما دخلت مثيلاتها الأوروبيات في عصور النهضة.. وبقيت إسبانيا تغط في نومها العميق إلى أن تململت أخيراً في أواخر القرن العشرين بعد أن دخلت وأختها البرتغال السوق الأوروبية المشتركة!!

# خاتمة

لا بدّ لنا أن نعرج ولو باختصار على الجانب الحضاري لمسلمي الأندلس. فقد ترعرعت حضارة زاهية في ربوع الأندلس كان لسانها العربية ومادتها الإسلام.. وقد شملت هذه الحضارة مختلف الجوانب كالزراعة والصناعة والتجارة والأدب والفن والمعمار والفلسفة وفن الحروب والفروسية.

فقد أنشأ المسلمون نظام ري متقن استطاع أن يحي الكثير من أرض الموات وتحولت بسببه أرض إسبانيا إلى مروج خضراء وقد أدخل العرب الفاتحون معهم المحاصيل الزراعية التي لم تكن معروفة في إسبانيا من قبل مثل النخيل والرز وقصب السكر.. كما برعوا في تربية دود القز وصناعة الأنسجة الحريرية.

أما بنسبة للفن المعماري فنظرة فاحصة إلى قصر الحمراء ومسجد قرطبة وقصر إشبيلية جديرة أن تثبت ما وصل إليه المسلمون من درجة عالية من الرقي في الفن المعماري والذي لا يزال محط أنظار العالم إلى وقتنا الحاضر.

كما علينا أن لا ننسى التراث الفلسفي الكبير الذي خلفه لنا كبار الفلاسفة المسلمين مثل ابن رشد الذي كان له الأثر الكبير في نقل تراث الفلسفة اليوناني إلى أوروبا عن طريق الأندلس وقد ذكر «برتراند راسل» أنّه كانت مدرسة فلسفية في أوروبا من أتباع ابن رشد.

وكذلك ابن الطفيل وكتابه الشهير في الفلسفة (قصة حي بن يقظان) وعبد اللّه بن ميمون والذي كان من يهود قرطبة إلا أنّه أثرى التراث الإسباني بمؤلفاته التي ألفها باللغة العربية، وابن عربي وفتوحاته المكية..

وقد برع الكثير من المسلمين في مجال الطب كابن زهر التي كانت مؤلفاته تدرس لفترة طويلة في حواضر أوروبا وابن باجة..

ولا نريد أن نبخس النساء الأندلسيات حقهن فقد نبغ منهن الكثير من النساء في الأدب والشعر والفنون كالولادة بنت المستكفي وحسانه التميمية وأم العلا وغيرهن كثير.

ولا بدّ أن نذكر هنا فن الفروسية التي برع فيه المسلمون وانتقلت تقاليده إلى داخل أوروبا حتى أصبحت العصور الوسطى عصور الفروسية.. إن الفروسية هذه لم تكن نتاج غابات المانياي أو تربّت في صقيع دول إسكندنافيا أو ضباب بريطانيا إنها كانت وليدة أبناء الصحراء العرب المسلمين الذين جلبوا تقاليدها معهم أثناء الفتوحات، وقد تعلمها الأوروبيون منهم عن طريق الأندلس والحروب الصليبية ولكن هيهات أن يكون الشبه بين الأصل والفرع وبين الإبداع والتقليد.

ولا ننسى أيضاً في هذا المجال ما أثرى به الأندلسيون الشعر العربي من شعرهم الذي يتميز بالرقة والسهولة والعذوبة.

ولا بدّ أن نذكر هنا أن أهل الأندلس اخترعوا الموشحات الأندلسية وهي الشعر المطبوع بطابع الأندلس ولعل بعض القراء يذكرون موشحات الوزير ابن الخطيب المتميزة بشعره اللطيف.

جادك الغيثُ إذا الغيثُ همى ... يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلّا حُلُماً ... في الكرى أو خلسة المختلس
إذ يقود الدهرُ أشتات المنى ... ينقل الخطو على ما يرسمُ
زمراً بين فرادى وثنا ... مثل ما يدعو الوفود الموسمُ
وروى النعمان عن ماء السما ... كيف يروي مالك عن أنس
فكساه الحسنُ ثوباً مُعلما ... يزدهي منه بأبهى ملبس

## أسباب السقوط

لا بدّ وإننا نستطلع تاريخ الأندلس عوامل سقوط هذه الدولة.. لأنني أعتقد جازماً أن دراسة التاريخ ليست قصصاً مجرداً أو لترويج الفكر بقراءة دول الأقدمين وكأن حاضرنا مقطوع الجذور فإن الدول تتشابه في نشوئها وهرمها وسقوطها فلو عرفنا العلل التي تصيب الدول فلعلنا نستطيع أن نصحح في حاضرنا ما أخطأ فيه الأقدمون في ماضيهم.

فأي دولة تقوم في التاريخ ولا بدّ لها من عقيدة يؤمن بها أفرادها لكي تخلق في نفوسهم حبها والاستماتة في الدفاع عنها ومن ثم قهر أعدائها وتوسعها. . هذا ما عبر عنه ابن خلدون في مقدمته بعنوان العصبية التي قد تكون ناشئة عن القبلية أو الدين وهذا ما نعبر عنه في الوقت الحاضر بالإيديولوجية.

فلو أخذنا تاريخ العرب قبل الإسلام لرأينا مثلاً أنهم كانوا قبائل مشتتة متحاربة يأكل قويها ضعيفها. تفشت فيه العصبية ولكنها على مستوى القبيلة فكان الفكر القبلي قادراً أن يجمع القبيلة الواحدة أو حليفاتها ولكنه لم يستطع أن يخلق منها أمة إلى أن جاء الإسلام وجمع العرب تحت راية التوحيد. استطاع أن يبعث في قلوبهم حب هذا الدين والذب عنه والجهاد في سبيله فخلق منهم أمة متآلفة يجمعها هذا الدين. . أي بالتعبير الحديث. . خلق الإسلام لهم الإيديولوجية التي استطاعت أن تجمعهم وتوحد جهودهم نحو الهدف وهو أعلاء كلمة اللّه ونشر كلمة التوحيد فكان أن فتح المسلمون البلاد وقضوا على إمبراطورية فارس وشلوا إمبراطورية الروم لزمن طويل وكانوا على أبواب فتح أوروبا لولا الخلاف والفشل والتنازع الذي أدّى بالتالي إلى اندحارهم وتلك سنن التاريخ التي تعم المجتمعات والدول والحضارات.

ولكن أصاب المسلمين ما أصاب غيرهم من الأمم فضعفت الحمية الدينية في قلوبهم وركنوا إلى الدنيا وبالتدريج دب الوهن والخلاف والتنازع.

وهكذا نسي المسلمون أحكام دينهم وتعاليم قرآنهم وتوصيات نبيهم الواحدة تلو الأخرى. . فتسلط حكام الجور عليهم. . وبالتدريج تحول الجهاد إلى صراع بين الدول والممالك لحفظ الملك فاختل نظام الدولة وبرزت الفتن في كل مكان وتقاتل المسلمون مع بعضهم البعض واستعانوا بالمشركين على المسلمين كما رأيناه في الأندلس مثلاً.

إنهم بعبارة أخرى. . ذهبت من نفوسهم الحمية على الدين وركنوا إلى طموحاتهم الذاتية وأهدافهم الصغيرة. . ولمّا لم يكن هناك عصبية أخرى غير الدين تجمعهم. . فقدوا الهدف وغابت عليهم السبل.

وبينما المسلمون في غفلتهم عن ضعفهم وما يكال لهم. . بدأت الأمم

الأخرى في الظهور والصعود وكانت عصبيتها من نوع آخر (أي إيديولوجيتها بالتعبير الحديث) فالإسبان على سبيل المثال ظهرت فيهم الروحية القومية مدعومة بالحمية الدينية لتطهير إسبانيا من المسلمين الكفرة (بزعمهم) مضافاً إليها الطمع في الغنائم والأسلاب فاتفقت ممالك الإسبان رغم اختلافها.. جمعتهم عصبية الهدف المشترك والمصالح المشتركة فصاروا قوة كبيرة لم يستطع المسلمون الوقوف في وجهها لأنهم فقدوا حميتهم لدينهم الذي خلق منهم أمة أولاً لم يكن كافياً إنهم صاموا وصلوا وتَلَو القرآن.. إذ أن العقيدة وحدها عاجزة عن الصمود إذا لم يكن يساندها الحمية لهذا الدين ولهذا سقطت بغداد أمام غزو المغول وخسر المسلمون الأندلس أمام الإسبان وسقطت فلسطين بيد اليهود في عصرنا الحالي.. كل ذلك لنفس السبب فالإيمان والحمية لنصرة الدين هو الذي يخلق القوة لتذليل الصعاب ويبعث على تفجير الطاقات وتعثر على السبل لرفع الظلم والحيف. ويجد الطريق للأخذ بأسباب القوة والمنعة فالمسلمون باختلافاتهم العرقية والقومية والطائفية لا يمكن أن توحدهم عقيدة أخرى غير عقيدة الدين الذي يبعث في نفوسهم الإيمان.. وأنا أعني بالدين.. روح الدين التي تبث العقيدة في النفوس ولا أعني ديناً مؤطراً برأي المدارس الفقهية المختلفة.

لعل المسلمين بالرجوع إلى الإيمان يستطيعون أن ينهضوا ويمنعوا ضياع أندلس أخرى وأخرى بعد أن أضاعوا الكثير واللّٰه المستعان على لم الشعث وجمع الكلمة وتأليف القلوب وما النصر إلا من عند اللّٰه.

## الفردوس المفقود

ما بين فتح العرب لشبه الجزيرة الأيبيرية في عام ٧١١ ميلادية ووقوف أبي عبد اللّٰه ملك غرناطة أمام قصر الحمراء «يبكي ملكاً مضاعاً» في عام ١٤٩٢م، شهدت إسبانيا التي اختزلت في الأندلس مع سقوط المدينة تلو الأخرى، الكثير من الممالك الإسلامية التي تنوعت بين الاستنارة غالباً والتشدد قليلاً.

## لوحة استسلام قرطبة داخل المسجد

يتحدث «ديفيد»، دليل الرحلات إلى قرطبة عن مدينته التي كانت حاضرة

للخلافة الأموية في الأندلس حتى سقوط الخلافة عام ١٠٣١ ميلادية، ويشير إلى ما تبقى من جامعتها التي كانت الأولى في أوروبا وأنجبت الوليد بن رشد (أفيروس) وابن باجه وابن طفيل ومحمد الغافقي وابن حزم الأندلسي.

تدلف من الجسر الروماني على نهر «الوادي الكبير» ـ لا يزال محتفظاً باسمه العربي ـ فينتابك الحنين أمام المسجد الجامع الذي لا تزال تعلو جدرانه المنيعة نقوشه القرآنية مخلدة عبقرية فنية نادرة.

ساحة المسجد الذي تحول إلى كاتدرائية بعد سقوط قرطبة في أيدي الإسبان عام ١٢٣٦ ميلادية كانت مليئة بأشجار البرتقال والرمان وكان يأكل منها الجائعون والقادمون إلى المدينة من بقاع شتى.

على مساحة ٢٤ ألف متر أقيم المسجد الجامع في قرطبة ليكون واحداً من أكبر مساجد العالم الإسلامي، بدأ بناؤه عبد الرحمن الداخل في عام ٧٥٥ وتم توسيعه ثلاث مرات حتى وصل مساحته الحالية.

## جدران مسجد قرطبة لا تزال تحمل النقوش الإسلامية

يقوم المسجد الجامع على أكثر من ألف عمود وكان يتسع يوماً لأربعين ألف مِصلٍ وقتما كان سكان قرطبة نصف مليون نسمة. يقول ديفيد الدليل السياحي إن المسجد هو الوحيد في العمارة الإسلامية الذي لا يتجه محرابه نحو القبلة في مكة. ولذلك تفسيرات متعددة غير محسومة.

**أولها:** أن خلفاء بني أمية فروا من تنكيل العباسيين بهم في مكة وأرادوا القطيعة بين مرجعية مكة التي يعتمدها العباسيون.

**والثاني:** أنهم جاءوا من دمشق التي ظلت في خيالهم فأرادوا بناء لا يقل عظمة ومثالاً عن المسجد الأموي بصبغته الرومانية.

**أما الثالث:** وهو الأرجح فهو أن معبداً رومانياً كان يقوم مقام المسجد الذي وضع على نفس القواعد القديمة دون تغيير فأخذ نفس اتجاهاته.

لم يرغب الإسبان في هدم المسجد عقب سقوط قرطبة فحولوه إلى كنيسة تملأ جدرانها النقوش القرآنية تتداخل مع التماثيل والأيقونات المسيحية وشواهد رفات القديسين ورجال الدين الذين دفنوا في المكان.

وبدلاً من مسمّى المسجد الجامع صار اسمه «موزكيتو/ كاتدرائيل» أي المسجد الكاتدرائية في إشارة لا تتكرر لمكان عبادة مسيحي، حتى مئذنته الشاهقة أحيطت ببرج مربع تنتصب فوقه أجراس الكنيسة، لإخفاء طابعها الإسلامي.

# شوارع وأسماء

## منارة المسجد من داخل
## الحي العربي القديم في قرطبة

لم يقتصر الطراز المعماري الذي بناه «المورز» ـ وهي التسمية الأوروبية المحرّبة للعرب الذين أقاموا في الأندلس ـ على المسجد ودور العبادة. فالبيوت العربية في قرطبة القديمة لا تزال قائمة كنموذج معماري يحتذى في الألفية الثالثة.

بيوت يغمرها الضوء والشمس والظلال في الساعات المختلفة للنهار، يقوم البناء حول ساحة فسيحة تتوسطها فسقيات الماء. الذي ينهمر من «مزاريب» الأسطح ليتخلل أرضية يكسوها الحصى ويمر عبر الفسقية في نافورة بديعة وهكذا دواليك.

في قرطبة القديمة تقف الجامعة الإسلامية وأمامها تمثال للعالم المسلم محمد الغافقي أحد مؤسسي طب العيون، وعلى مقربة منها الحي اليهودي الذي طمست معالمه بعد سقوط الأندلس.

هنا عاش الفيلسوف العربي اليهودي عبد الله بن ميمون الذي فرّ من اضطهاد دولة الموحدين في عصر ملوك الطوائف إلى مصر. لكن ما قاساه ابن ميمون ظل نذراً يسيراً مما لقيه العرب واليهود على أيدي الإسبان.

## ١٨٠ عموداً من الرخام
## في صالة الأسود داخل الحمراء

وعلى بعد خمسة أميال تقريباً من قرطبة القديمة تقف بقايا مدينة الزهراء التي قيل أن الخليفة عبد الرحمن الناصر شرع في بنائها تكريماً لجارية شُغف بها حباً واستغرق بناؤها سبعة عشر عاماً، لكنها دمرت بعد خمسين عاماً في فتنة قيل أنها قامت بين العرب والبربر.

## جنان الحمراء

وتظل غرناطة هي درة عقد هذه الحضارة التي سقطت بسقوطها، نجت غرناطة من يد الإسبان بعد سقوط إشبيلية وقرطبة لأن ملوك بني الأحمر تحالفوا مع المسيحيين الإسبان ضد أخوانهم المسلمين. لكن الزحف القادم من الشمال ما كان ليتوقف أمام أسوار قصر الحمراء.

كل شيء في غرناطة يشير إلى ذلك الماضي العربي، طبائع سكانها الصاخبة الحارة، قدريتهم وهم يتحدثون عن مضار العمل الشاق ورغبتهم الجارفة في الاستمتاع بحياتهم. لكن عندما تحدثهم عن الإسلام يبدو التناقض صارخاً. ففي اعتقادهم أن إسبانيا الكاثوليكية مئة بالمئة لا مكان فيها للإسلام اليوم، لكنها تتسع لمّا خلفته حضارة المسلمين.

تشق طريقك إلى الميدان الرئيسي لتمر عبر الكاتدرائية الكبرى في المدينة وقد أقيمت وسط الحي التجاري، كان يعرف بـ«القيسرية» وهو الاسم الذي تتخذه الأحياء المماثلة في كثير من المدن العربية حتى اليوم.

## مجلس العرش
## في مواجهة صالة الريان

ملامح المعمار القوطي في الكاتدرائية لا تخفي ما تحتها من معمار إسلامي فقد أقيمت على أنقاض مسجد المدينة القديمة، وفي مواجهتها تقع المدرسة القرآنية التي بناها يوسف الأول في القرن الرابع عشر، لا تزال نقوشها القرآنية غالبة رغم التعديلات المختلفة التي لحقت بها في القرن الثامن عشر.

لكن زيارة غرناطة أو الأندلس عامة لن تكتمل دون إطلالة مطولة على قصور الحمراء، التي شيدها ملوك بني الأحمر في وقت كانت فيه غرناطة تقف واحدة كآخر معاقل المسلمين في الأندلس.

لا تكشف قصور الحمراء عن أسرارها للوهلة الأولى، فأسوارها الشاحبة تخفي داخلها كنوز من الفن المعماري تؤكد بدورها أن الحضارة العربية في الأندلس لم تتخل عن تذوق الجمال والاستمتاع به حتى والانهيار يتهددها وكأنها تعيش أبداً.

## جنة العريف

## المقر الصيفي لملوك بني الأحمر

لكن رؤية كل ذلك تخلف في النفس انطباعات متضاربة إذ لا يخلو جدار واحد داخل الحمراء من نقش لعبارة «لا غالب إلا اللّه». فهل كان بنو الأحمر يتوقعون الهزيمة بين لحظة وأخرى، وهل ثمة تسليم أكبر بالقدر من تلك العبارة؟

قبل الدخول إلى ساحات القصبة الجديدة ـ تعني القلعة ـ سيجد الزائر نفسه أمام أثر لا يمت للمكان بصلة. قصر على الطراز الروماني بناه الأمبراطور كارلوس الخامس ليبزّ به قصور الحمراء في عام ١٥٢٧م. ولم يتم حتى القرن الثامن عشر.

ويجتاز الزائر أسوار الحمراء عابراً بمحراب صغير طغت عليه نقوش مسيحية ثم بأقواس خشبية تقود إلى صالة الريان، وهي صالة واسعة لا سقف لها وسطها بركة مستطيلة تمثل مياهها مرآة عاكسة لجمال الجدران والزخارف المحيطة بها.

وتفضي صالة الريان في طرفها الآخر إلى صالة العرش، وقد كانت مكاناً قاصراً على الضيوف الذين ينتظرون مقابلة السلطان.

ولا يتكرر الشكل الواحد مرتين في زخارف الحمراء وهو ما يكسر أي شعور بالملل أثناء التجول فيها، فالمقصورات والأقواس والأعمدة وفسقيات الماء تتخذ أشكالاً متنوعة من مكان لآخر.

صالة الأسود تشكل لوحة نادرة فهي تقوم على ١٢٤ عموداً من الرخام الأبيض الناصع وتتوسطها نافورة يحيطها اثنا عشر أسداً كانت تخرج المياه من أفواهها في أوقات محددة وتحيطها قنوات تشير إلى الاتجاهات الرئيسة الأربعة.

وما إن ينتهي المرء من التجول في قصور الحمراء حتى يجد نفسه في «جنة العريف»، تلك الجنان التي كانت المقر الصيفي لملوك بني الأحمر وبنيت في القرنين الثالث عشر والرابع عشر.

تسير وسط جنة العريف فتعرج على «ساحة الساقية»، «وساحة السلطانة» في خضرة ممتدة لا يقطعها سوى منظر برك الماء والمدرجات التي تأخذك صعوداً وهبوطاً.

يقول التاريخ إن غرناطة سقطت بأيدي المسيحيين الإسبان عندما كانت أوروبا تخرج من عصورها الوسطى، وكان من المتوقع والحال كذلك أن تزداد المدينة ازدهاراً في ظل حرص الملوك الإسبان عندما كانت أوروبا تخرج من عصورها الوسطى، وكان من المتوقع والحال كذلك أن تزداد المدينة ازدهاراً في ظل حرص الملوك الإسبان على قيمتها الاقتصادية والحضارية، لكن ذلك لم يحدث فمع حلول عام ١٥٧٠م طردت بقية العرب والمسلمين الذين ثاروا على الإجراءات القمعية ضدهم وبعدها طويت صفحة غرناطة والأندلس.

# رثائية الأندلس(*)

| | |
|---|---|
| ـ لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نُقصَانُ | فَلَا يُغَرَّ بِطِيبِ العَيْشِ إِنسَانُ |
| ـ هِيَ الأُمورُ كَمَا شَاهَدْتَهَا دُوَلٌ | مَنْ سَرَّه زَمَنٌ سَاءَتْهُ أَزمَانُ |
| ـ وَهذِهِ الدَّارُ لَا تُبْقِي عَلى أَحَدٍ | وَلَا يَدُومُ عَلى حَالٍ لَهَا شَانُ |
| ـ يُمَزِّقُ الدَّهْرُ حَتماً كُلَّ سَابغَةٍ | إِذَا نَبَتْ مَشرَفِيَّاتٌ وَخِرْصَانُ |
| ـ وَيَنتَضِي كُل سَيْفٍ لِلفَنَاءِ وَلَو | كَانَ «ابنَ ذِي يَزَنٍ» وَالغِمْدُ غُمْدَانُ |
| ـ أَيْنَ المُلُوكُ ذَوُو التِّيجَانِ مِنْ يمَنٍ | وَأَيْنَ مِنْهُمْ أَكَالِيلٌ وَتِيجَانُ؟ |
| ـ وَأَينَ مَا شَادَهُ «شَدَّادُ» في إِرَمٍ | وَأَيْنَ مَا سَاسَهُ في الفُرْسِ سَاسَانُ؟ |
| ـ وَأَيْنَ مَا حَازَهُ «قَارُونُ» مِنْ ذَهَبٍ | وَأَينَ «عَادٌ» وَ«شَدَّادُ وَقَحطَانُ»؟ |
| ـ أَتى عَلى الكُلِّ أَمْرٌ لَا مَرَدَّ لَهُ | حَتى قَضوا، فَكَانَ القَوْمَ مَا كَانُوا |
| ـ وَصَارَ مَا كَانَ مِنْ مُلْكٍ وَمِنْ مَلِكٍ | كَمَا حَكى عَنْ خَيَالِ الطَّيْفِ وَسْنَانُ |
| ـ دَارَ الزَّمَانُ عَلى «دَارَا» وَقَاتِلِهِ | وَأَمَّص «كِسْرى» فَمَا آوَاهُ إِيوَانُ |
| ـ كأَنَّما الصَّعْبُ لَمْ يَسهُلْ لَهُ سَبَبٌ | يَوماً وَلَا مَلَكَ الدُّنيَا «سُلَيمَانُ»!! |
| ـ فَجَائِعُ الدَّهْرِ أَنوَاعٌ مُنَوَّعَةٌ | وَلِلزَّمَانِ مَسَرَّاتٌ وَأَحْزَانُ |
| ـ وَلِلحَوَادِثِ سُلْوَانٌ يُسَهِّلُهَا | وَمَا لِمَا حَلَّ بالإِسْلَامِ سُلْوَانُ |
| ـ يَا غَافِلاً وَلهُ في الدَّهْرِ مَوْعِظَةٌ | إن كنتَ في سِنَةٍ، فَالدَّهْرُ يَقظَانُ |
| ـ وَمَاشِياً مَرِحاً يُلْهِيهِ مَوْطِنُهُ | أَبَعْدَ «حِمصٍ» تَغُرُّ المرءَ أَوطَانُ |
| ـ تِلكَ المُصيبَةُ أنست مَا تقدَّمَهَا | وَمَا لَهَا مَعَ طول الدَّهْرِ نِسْيَانُ |

(*) قصيدة لأبي البقاء الرندي ـ أحد شعراء الأندلس ـ يرثي فيها تتالي سقوط الممالك ويدعو فيها العرب والمسلمين في المغرب لنصرة إخوانهم ويصوّر لهم ما حدث.

- يَا رَاكِبينَ عِتَاقَ الخَيْلِ ضَامِرَة كأَنَّهَا في مَجَال السَّبْقِ عُقْبَانُ
- وَحَامِلينَ سُيُوفَ الهِنْدِ مُرهَفَةً كأَنَّهَا في ظَلَامِ النَّقْعِ نِيرَانُ
- وَرَاتِعِينَ وراءَ البَحْر في دَعَةٍ لَهُمْ بأَوطَانِهِمْ عِزٌ وَسُلْطَانُ
- أَعندَكُمْ نَبأٌ مِنْ أَهْلِ أَندَلُسٍ فقَدْ سَرى بحَدِيثِ القَوم رُكْبَانُ
- كَم يَسْتَغيثُ بِنَا المُسْتَضْعَفُونَ وَهُمْ قَتْلى وَأَسْرى فَمَا يَهْتَزُ إِنسَانُ
- مَاذَا التَّقَاطُعُ في الإِسْلَام بَيْنَكُمْ وَأَنتُمُ يَا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانُ؟!
- أَلَا نفُوسٌ أَبيَاتٌ لَهَا هِمَمٌ أَمَا عَلى الخَيْرِ أَنصَارٌ وَأَعْوَانُ

# ثبت المصادر والمراجع

- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ـ دار صادر ـ بيروت ١٩٧٩م.
- المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ـ تحقيق إحسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت ١٩٦٨م.
- محمد عبد اللّه عنان: دولة الإسلام في الأندلس ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ ١٩٨٨م.
- حسين مؤنس: فجر الأندلس ـ الدار السعودية للنشر والتوزيع ـ جدة ـ الطبعة الثانية.
- عبد الفتاح مقلد: كيف ضاع الإسلام من الأندلس ـ القاهرة ـ ١٩٩٣م.
- عبد الرحمن بن خلدون: تاريخ ابن خلدون.
- سيد أمير علي: موجز تاريخ الإسلام.
- راي تزفليان: في ظلال الحمراء.
- أحمد بدر: دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها.
- ابن عذاري: البيان المغرب، دار الثقافة ـ بيروت ١٩٨٣.
- البكري: الغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ـ مكتبة المثنى ـ بغداد.

# فهرس المحتويات



## شخصيات من التاريخ

# طارق بن زياد

فاتح الاندلس




ISBN 9953-25-116-9

9 78995

6€0.0

دار الفكر العربي

مؤسسة ثقافية للطباعة والنشر والتوزيع

كورنيش سليم سلام - بناية الشروق - الطابق الاول . ص.ب. ٥٠٧٠ / ١٤ - بيروت - لبنان

هاتف: ٣١١١١٤ - ٠١ / ٣١١١١٥ - ٠١ . فاكس: ٣١٣٧٣٦ - ١ - ٠٠٩٦١

Beirut - Lebanon • E-mail: fikrarab@cyberia.net.lb